الإهداء

إلى: حملة القرآن.. وفرسان الميدان..

الذين يحملون القرآن في قلوبهم..

والبنادق على أكتافهم..

ينشرون الفضيلة بأخلاقهم.. ويحمون الدين والأوطان بجهادهم..

الذين يتلون كتاب الله: فتخضع أنفسهم، وتخشع قلوبهم، وتلين جلودهم، وتفيض عيونهم..

وهم الغلاظ الشداد على أعدائهم..لا يعطون الدنية، ولا يرضون الردية.. همتهم عالية، وكرامتهم غالية..

مساكنهم الخنادق والأنفاق.. ورباط خلف متراس أو في زقاق..

زادهم بضع تمرات.. ورواؤهم ما يرتلون من آيات..

ترى بارقة النصر في عيونهم..

والأمل والإيمان يعمر قلوبهم..

هم شرف الأمة وفخرها..

ورأس مالها وعزوتها..

شهادة علمية في كتاب
«تأملات قرآنية»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله مُنزلِ الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، وهو سريع الحساب، وأشهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وقد أنزل إليكم نوراً مبيناً ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهو تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم، وقد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آياتِ الله مبيِّنات؛ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور، صلى عليه الله وملائكته وعباده المؤمنون، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعـــد:

فقد مَنَّ الله تبارك وتعالى عليَّ بالاطِّلاع، ثم بالاستمتاع، وأنا أقرأ كتاب أخينا المفكِّر الأسير في سجون الاحتلال بما ينيف عن عقدين من الزمان الأستاذ المجاهد محمود موسى عيسى، ولا أبالغ إذا وصفته بعميد الأسرى عامة، والمقدسيين خاصة، والقسَّاميين على وجهٍ أخصَّ، فقد اصطفاني بالتقديم لكتابه تأملات قرآنية، وقد تأملت

فيه، فوجدته رائعاً في المبنى والمعنى، خاصة وأن مؤلفه ـ فكَّ الله أسره عاجلاً غيرَ آجل ـ قد حرص فيما انتقاه لإدراجه فيه أن يكون من الآيات التي لم تأخذ حقَّها من البيان والتدبير غالباً، فقام مشكوراً ومأجوراً بإبراز بعض أسرارها ولطائفها، وجوانب من وجوه الإعجاز والبلاغة والصور الجمالية فيها.

وقد أبدع فيما تناول منها حتى أضحت وجبة علمية إيمانية دسمة، فقد استكثر من الفوائد، واستزاد من الدروس التربوية بصورة مدهشة، بما يوحي بأن المولى جل وعلا قد فتح عليه من خزائن العلم، وأفاض عليه من أدوات الفهم، ما جعله أقدر على تدبر كتابه، ولا عجبَ في ذلك؛ فإن الذي يحمل هذا الدين هداية للتائهين، ورحمة للعالمين؛ ابتغاءَ المغفرة والجنة، ورضوان الله الأكبر، يتفق له من المعاني ما لا يخطر ببال الجالسين على الأرائك، فكيف إذا كان من السابقين بالخيرات، فأنفق من قبل الفتح وقاتل، ثم ابْتُلِيَ بالاعتقال عند ذئاب الاحتلال، فعاش ظروفاً شبيهةً بأزمان تنزل القرآن؟! وحسبنا أن ننظر فيما فاض به فكر الشهيد سيد قطب وهو حرٌّ وراء السدود، وبتلك القيود، وظلَّ بالله مستعصماً، فلم يَضِرْهُ كيد العبيد، وخرج على الناس بكتابه الفريد في تدبر القرآن المجيد الشهير بعنوان: في ظلال القرآن.

وإذا كان لا بد من الإشارة إلى بعض الإبداع في صنيع أخينا أبي موسى بن عيسى فانظر المعانيَ الجميلة التي يزغرد لها الفؤاد فيما أورد من لفتات في قصة مريم ابنة عمران، وبالأخص عند تناوله لوقفات من سورة مريم، وتدبَّرْ عمق المعاني في الوقفات من الخامسة عشرة إلى التاسعة عشرة، بل انظر فيما استنبطه من معانٍ سياسية في قصة مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، وراح يحاور الملأ من قومه دفاعاً عن سيدنا موسى عليه السلام، بما يشبه المرافعات في المجالس النيابية، بل إنه قد أسَّس بذلك لجواز المشاركة في تلك المجالس الوثنية، ما دام المؤمن قادراً على التخفيف عن إخوانه من وطأة فرعون وأعوانه.

ولعل الإبداع الكبير في فهم أخينا المؤلف قد تجلَّى أجلى ما يكون عند تناوله للفروق الدقيقة بين المصطلحات المتشابهة، وكشفه عن السر في تقديم بعضها أحياناً على بعضٍ، وتأخيرها في مواضع أخرى.

ومن أمثلة ذلك التقديم والتأخير في قوله تعالى عن النعاس يوم بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، بينما قال عنه يوم أحد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وفي سورة القصص: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠]، بينما قال في سورة يس: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: ٢٠].

وانظروا ما دَوَّنه من فروقٍ بين الأمرين: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ص١٠٥، وكذا الفرق بين قوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، وقوله: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في الموضعين من سورة الأنعام **٩٩، ١٤١**.

وهكذا فقد امتاز بالجمع بين متشابهات القرآن، والاجتهاد في إيجاد الفروق الدقيقة بينها؛ بما يعكس مدى الأهلية في تدبر القرآن التي ترقَّى فيها هذا القائد المجاهد.

وقد لا أكون متجنياً على أحدٍ، أو مُفْتَئِتاً على الغيب، إذا قلت: إن هناك مواضع من الاجتهاد لم يُسْبق بها، من أمثال رأيه في تأويل الحروف المقطعة في أوائل السُّور، فقد توقف الكثيرون عندها مفوِّضين العلم لله، ظانِّين أنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، بينما قام المؤلِّف برصد دلالاتها في آيات سورها المصدَّرة بها.

وليس بالضرورة أن أكون من شيعته فيما ذهب إليه هنا، وفي القليل من اجتهاداته الأخرى، غير أن فتح باب التدبر فيها وتأويلها يدل على أنه قد أُوتي الحكمة وفَصْلَ

الخِطاب، ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً، وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلَّا ذو حظٍّ عظيم.

جزى الله أخانا المؤلف محمود بن موسى آل عيسى عن الإسلام والأمة، وعن الشعب الفلسطيني، والمقاومة الإسلامية، وعن الأسرى والمسرى، خير الجزاء، وجعله في صحائفه التي يؤتاها بيمينه، وفي موازينه القسط يوم القيامة، وعجَّل الله الودود ذو العرش المجيد كَسْرَ القيود عنه، وعن إخوانه الأُسود في سجون إخوان القرود، أو لدى العبيد خُدَّام اليهود؛ وأن يجعل صبرهم ومصابرتهم ومرابطتهم وَأْداً لتلك العهود التي حكم فيها الرويبضات، وأن نشهد الخلافة الإسلامية وقد ورثت سلطان الحكم الجبري، ودكَّت حصونه، فكانت كثيباً مهيلاً، أو سُيِّرت فكانت سَرَاباً، وما ذلك على الله بعزيز، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

وأخيراً فإنني أشكر لأخي الحبيب الأديب محمود عيسى، ولإخوانه المحررين من أبناء بيت المقدس، وأكنافه في الضفة الغربية، وفي مؤسسة إعلام الأسرى على ثقتهم في شخصي لأضع شهادتي في هذه المقدمة، مع أن بضاعتي مزجاة، وما أنا إلا كطالب علم يقول لأستاذه:

«هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً»، وقد لا أصبر على ما لم أُحِطْ به خبراً، والله هو المستعان، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أُنيب.

بقلم

د.يونس بن محيي الدين الأسطل

عضو رابطة علماء فلسطين

وعضو البرلمان الفلسطيني

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تِبياناً لكلِّ شيء، وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين، والصلاة والسلام على النبي الهادي الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين، وصحابته الغُرِّ الميامين، ومن سار على دَرْبهم، واهتدى بهديهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن القرآن الكريم كتاب الله المعجز، وقد أنزله على رسوله بلسان عربي مبين، وأودع فيه من ضروب البلاغة والفصاحة والبيان، ما أبهر العقول، وحيَّر الألباب.

رُوي أن الوليد بن المغيرة سمع من النبي ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، فقال: «**والله إن له لَحلاوةً، وإن عليه لَطِلاوةً، وإن أسفله لَمُغْدِق، وإن أعلاه لَمُثْمِر، ما يقول هذا بشر**».

وقد أُنزل القرآن على قومٍ اشتهرت عندهم البلاغة، واستوت لديهم الفصاحة، وبلغ من أثرها في نفوس الناس أن قال الرسول ﷺ فيها: «**إن من البيان لَسِحراً**»[1]، و«**إن من الشِّعْرِ لحكمة**»[2]، وإنك لتجد من نساء العرب من كنّ يرتجلن شعراً جزلًا،

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري٧/ ١٩، تحقيق: محمود زهير الناصر، ط١، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.

(٢) المصدر السابق ٨/ ٣٤.

مطبوعاً غير مصنوع، لا يُشَقُّ له غبار، يعزّ على فحول الشعراء المعاصرين أن يُبَاروهنَّ أو يعارضوهن، مع أنهن كنّ أميّاتٍ، لا يقرأن ولا يكتبن!

وهذه أبيات من قصيدة قالتها قَتِيلةُ بنت الحارث بين يدي الرسول ﷺ، ترثي بها أخاها النضر بن الحارث، الذي أمر الرسول ﷺ بقتله صبرا:

أَمُحَمّدٌ يَـا خَـيْرَ ضَـنْءٍ كَـرِيمَـةٍ ... فِـي قَوْمِهَا وَالْفَحْـلُ فَحْلٌ عَرّقُ

مَـا كَانَ ضَـرّك لَوْ مَنَنْـت وَرُبّمَا ... مَـنَّ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُحنَقُ

فَالنّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ أَسَـرْت قَرَابَةً ... وَأَحَقُّهُـمْ إنْ كَانَ عِتْـقٌ يُعْتَـقُ

ظَلّتْ سُـيُوفُ بَنِي أَبِيهِ تَنُـوشُـهُ ... لله أَرْحَـامٌ هُنَـاكَ تُشَـقّقُ

صَـبْـرًا يُـقَـادُ إلَى الْـمَنِيّةِ مُتْعَبًا ... رَسْـفَ الْمُقَيّدِ وَهُوَ عَـانٍ مُوثَقُ

ولما بلغ النبيَّ ﷺ هذا الشعر قال: «**لو بلغني قبل قتله ما قتلته**»(١).

ومن لم يسمع بمرثيات الخنساء؟ ومن أجمل ما قالت وأجوده وهي ترثي أخاها صَخْراً:

قـذىً بعـينـك أم بالـعيـن عوار ... أم ذرفتْ إذْ خلتْ من أهلها الدارُ؟

كـأنَّ دمـعي لذكراه إذا خـطرت ... فيضٌ يسيل على الخدينِ مِدْرارُ

فالعينُ تبكي على صَخْرٍ، وحُقَّ لها ... ودونَه من جديدِ الأرضِ أستارُ(٢)

ومنه:

يذكِّـرني طلوعُ الشـمسِ صخراً ... وأذكـرُه لـكلِّ غـروبِ شـمسِ

(١) ابن هشام، عبد الملك، سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٥، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية.

(٢) الخنساء، تماضر بنت عمرو، ديوان الخنساء، ص٤٧، طبعة دار صادر ـ بيروت.

فلـولا كثـرةُ الباكـينَ حـولي عـلى إخوانِهـم لقتلـتُ نفـسي
ومـا يـبـكون مثل أخـي، ولكنْ أعـزّي الـنـفسَ عنه بالتأسـي[1]

وقد جاء القرآن يتحدى العرب جميعاً بشعرائهم وخطبائهم وحكمائهم، أن يأتوا بمثله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثُمَّ تحدَّاهم أن يأتوا بعشر سُوَرٍ، وبسورة واحدة مثلِهِ أو من مثلِهِ، فعجزوا عن ذلك وبُهِتوا، ولما حاول أحدهم، وهو «مسيلمة الكذاب»، أن يختلق كلاماً يعارض به القرآن الكريم، سَخِرَ منه حتى أتباعه!، وأصبحت تروى خزعبلاته وتخريفاته للنكتة والسخرية!

وعندما أقرأ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، أجد فيه جملة من المعاني، وهاك أربعة منها:

١ـ دعوة ترغيب وتحبيب لتدبر القرآن، والتفكر في آياته.

٢ـ ولمسة عتاب للمؤمنين الذين يتلون الكتاب دون تدبر أو تفكر.

٣ـ ونبرة استنكار واستهجان واستغراب من عدم قيام «المعاندين» بتدبره.

٤ـ كما أجد فيه إعلانَ تحدٍّ واضحٍ بَيِّنٍ؛ أن هذا الكلام ليس كمثله كلام، وليس بقول بَشَر، وسبيل معرفة ذلك أن كلام الله لا تعارضَ فيه ولا تناقضَ، ولا اختلاف، بينما تجد في كلام البشر ﴿ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

وإن بعض المواضع من القرآن التي قد تبدو للوهلة الأولى كذلك، هي في حقيقة الأمر عين التوافق والتكامل، فالقرآن يفسِّر بعضُه بعضاً، ويكمل بعضه بعضاً..

---

(١) ديوان الخنساء، ص٨٤.

كَقِطَعِ الفسيفساء، يكمل بعضها بعضاً، ويُتِمُّه، ويزيده روعة، وجمالاً، ولَعَمْرُ الله إنك عندما تتدبر آيَ القرآن، وتتفكر في عمق معناه، ودقة مبناه، وتعيش في «ظلاله» تكتشف أسراراً وعجائبَ تشعرك بنشوةٍ، ومتعة لا توازيها متعة، فالحياة في ظلال القرآن ـ كما وصفها صاحب الظلال ـ «نعمة.. نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه، وتزكيه».

وإذا ما دَقَّقْتَ النظر في أيِّ كلامٍ غيرِ كلام الله، شعراً كان أم نثراً، فلا شكَّ أنك ستجد فيه اختلافاً كثيراً..، وهذا الاختلاف نابع من «الاختلاف البشري» الذي تتميز به طبيعة النفس البشرية، وتعبِّر عنه، فهي دائمة التقلب والاختلاف والتغيير والتبديل، لا تدوم على حال، ولا يستقرُّ لها قرار.

وقد قرأتُ لكثير من كبار الكتاب والأدباء، فوجدتهم يُجْمِعون القول: إن أحدهم كلما أعاد قراءة ما كتب، خالجه شعور في داخله يدعوه للتغيير والتبديل، وأن نقصاً ما يعتري هذا النصَّ الذي بين يديه..، ولا أحسب كاتباً إلا ويعتريه هذا الشعور!

إن «الاختلاف» فيما يكتبه البشر، يشمل: المعنى والمبنى، فاختيار الكلمات، وربطها ببعضها، وتركيب الجمل، واختيار اللفظ المناسب للتعبير عن المعنى الحاضر في النفس، كلُّ ذلك يترك مساحة واسعة من «الاختلاف» في مستوى الكتابة، من موضعٍ لآخرَ في النصِّ الواحد، ولأنك لن تجد في هذه الدنيا إنساناً لا يغيِّر مواقفَه، وتصوراتِهِ، وآراءَه من حينٍ لآخر، فما دام الإنسان يتعلم، وما دام الإنسان يخالط أفكاراً وأناساً، ويواجه أحداثاً ومستجداتٍ؛ فلا بُدَّ أن مواقفه وتصوراتِهِ وآراءَه، ستكون دائمة التغيُّر، فلا شكَّ ـ والحال هذه ـ أن نجد فيما يكتبه البشر «اختلافاً كثيراً» ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

إن التدبر الذي يدعو إليه الله تعالى في قوله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يشمل المعنى والمبنى، فلا بُدَّ من الفهم الدقيق، والنظر العميق، في معاني الكلمات، وأوجه دلالتها، وإيحاءاتها، وتناسبها مع السياق، كما ينبغي إمعان النظر في بِنْيةِ الكلمات والأدوات، وأبنية الصيغ والآيات.. وهذا الأمر يحتاج لتأملٍ عميق، وتدبُّرٍ دقيق.

وفي هذا الإطار، إطارِ التدبر والتفكر في آيِ «القرآن الكريم» جاء هذا الكتاب بعنوان: «**تأملات قرآنية**»، وهو جهد أضيفه لجهد من سبق من أساتذةٍ، وعلماءَ أجلاءَ، تتلمذت على كتاباتهم، وتأثرت بأفكارهم وشروحاتهم، وتأملاتهم، فكانت حافزاً دفعني لأقتديَ بهم، وأنهجَ نهجهم، مسلِّطاً الضَّوْءَ على مواضعَ منتقاةٍ من القرآن الكريم، أحسب أنها لم تُشْبَعْ بحثاً ودراسة، ولم يُكتشَفْ بعدُ كثيرٌ من أسرارها، وعجائبها، ولم تبرز جوانب الإعجاز والبلاغة، والصور الجمالية فيها، مركِّزاً في هذه التأملات على المعنى والمبنى معاً في آنٍ واحد.

سائلاً الله أن يتقبل مني هذه المساهمة، وهذا الجهد المتواضع، وأن ينفع به، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول
وقفات تأملية مع قصتي مريم وزكريا

في هذا المبحث تسعَ عشرةَ وقفةً تأملية، منها أربعَ عشرةَ من سورة آل عمران، وخمسٌ من سورة مريم، وهاؤُمُ اقرؤوا وقفاتيه:

أولاً: وقفة مع اصطفاء الله آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمرانَ على العالمين:

تبدأ قصتا مريم وزكريا عليهما السلام في سورة آل عمران بالحديث عن الاصطفاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٣٣-٣٤].

وأول الذين ذكر اصطفاءهم هو آدم عليه السلام، وقد اصطفاه الله بأن خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه الأسماء كلَّها، وأمر الملائكة بالسجود له..، لكنَّ أهمَّ أمر ذَكرتِ الآية اصطفاء آدم لأجله، هو: خلقه من تراب، دون أب أو أم، وما يؤكد هذا الافتراض أن الذين ذكرت الآية اصطفاءهم ـ تبعاً للتسلسل التاريخي ـ أفراداً أو بيوتاً، امتاز كلٌّ منهم بميزة، هي فذة غير مسبوقة، فآدم هو أول البشر، وهو الوحيد الذي خلقه الله من تراب.

ونوح: هو أول رسول بعثه الله لهداية البشرية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣]، فكلُّ النبيين جاؤوا من بعده.

وآل إبراهيم: اصطفاهم الله بأن جعل فيهم الكتابَ والحُكْمَ والنبوة: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:٥٤]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، ولم يسبق آلَ إبراهيم آلُ رجلٍ بذلك.

وموسى عليه السلام هو من آل إبراهيم، وقال الله له: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾[الأعراف: ١٤٤]، فيبقى ما اصطفاه الله به في دائرة ما تمَّ اصطفاء آل إبراهيم فيه.

وكذلك محمد عليه الصلاة والسلام هو من آل إبراهيم، وأنزل الله عليه القرآن الكريم: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

أما آلُ عمران فالمقصود بهم بيت عمران، «فآل الرجل هم أتباعه وقومه، ومَنْ هم على دينه»[1] ورغم أن آل عمران هم من آل إبراهيم، إلا أن القرآن ذكرهم هنا في هذا الموضع بشكلٍ منفصل؛ لأن ما تمَّ اصطفاؤهم به لم يكن لأحدٍ من قبلهم، وهو خلق عيسى عليه السلام من أمٍّ دون أبٍ، وولادة يحيى من أمٍّ عاقر وأبٍ طاعن في السن، وإن ولادة عيسى عليه السلام من دون أبٍ هو حدث يحصل لأول مرة في تاريخ البشرية، ويذكِّر بخلق آدم عليه السلام من تراب، من هنا نجد هذا الربط القوي بين آدم وعيسى عليهما السلام في سورة آل عمران؛ إذْ تبدأ القصة بذكر آدم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾، وتنتهي بذكر آدم ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩]، والسرُّ وراء هذا الربط يعود لتشابه الحالتين من جهتين:

١ـ عظم المهمة الموكلة لكليهما:

أمَّا آدم فخلافة الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠].

وأما عيسى فإقامة الدين في الأرض لله، وتنقيته مما أدخله يهود فيه، فهم

(١) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ٦/ ٣٢٦، دار ابن الجوزي ـ القاهرة.

يحرِّفون الكلم عن مواضعه، بل يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله؛ ليشتروا به ثمناً قليلاً.

٢ـ المعارضة الشديدة لهذا الاصطفاء:

آدم من قِبَلِ إبليس.

وعيسى من قِبَلِ يهود.

فجاء الربط بين آدم وعيسى ردًّاً على يهود الذين يؤمنون بخلق آدم من غير أب وأم، ويرفضون الإيمان بخلق عيسى من غير أب، ويقولون على مريم بهتاناً عظيماً.

ويعلق صاحب الظلال على التشابه والعلاقة بين خلق آدم وعيسى عليهما السلام، فيقول: «والبشرية لم تشهد خَلْقَ نفسها، وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها! لم تشهد خَلْقَ الإنسان الأول من غير أب وأم، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث؛ فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى من غير أب، على غير السُّنة التي جرت منذ وُجد الإنسان على هذه الأرض؛ لِيشهدَها البشر، ثم تظلَّ في سجلِّ الحياة الإنسانية بارزةً فذةً تتلفت إليها الأجيال، إنْ عزَّ عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان»[(١)].

ونلاحظ أن القرآن الكريم قد أشار في ختام آية «الاصطفاء» إلى أن الذين ذُكر اصطفاؤهم هم ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾، فآل عمران من آل إبراهيم، وآل إبراهيم من نوحٍ، ونوحٌ من آدم..، وكأن النص يشير إلى أن اصطفاء الله لبعض عباده لا يقوم على أساس العرق، أو الجنس ـ كما تزعم يهود ـ، فالناس لآدمَ، وآدمُ من تراب..، مع أن بعض المفسرين ذهب إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾ إلى الموالاة

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج٤/ ٢٣٠٤، ط١٥، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م، دار الشروق ـ القاهرة.

في الدين؛ فقد جاء في تفسير الطبري: «إنما جعل بعضهم من بعض في الموالاة في الدين، والمؤازرة على الإسلام والحق، كما قال ـ جلَّ ثناؤه ـ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال في موضع سابق عليه ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧] يعني: أن دينهم واحد، وطريقتهم واحدة، فكذلك قوله: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ إنما معناه: ذرية دين بعضها دين بعضها الآخر، وكلمتهم واحدة، وملتهم واحدة في توحيد الله وطاعته»(١).

ويأتي التعقيب في ختام الآية ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أيْ يسمع الدعاء والنداء، وإن كان «خفياً»، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وينتقل السياق مباشرة؛ ليقصَّ علينا من نبأ مريم وزكريا وابنيهما بالحق، وتبدأ القصة بذكر نذر امرأة عمران ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[آل عمران: ٣٥]، والمعنى: إني أوجبت لك أن يكون ما في بطني خالصاً لعبادتك، وخدمة بيتك، ومع أن ما تدل على مبهم يشمل الذكر والأنثى، إلا أنه يتَّضح من السياق أن امرأة عمران كانت تعتقد أنها ستنجب ذكراً، ومن هنا جاء قولها عندما وضعتها ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، فكأنها استغربت أن تضع أنثى، وقولها ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ يفيد أنها عندما نذرت ما في بطنها لله محرراً كانت تعتقد أنه سيكون بالضرورة ذكراً، وأن الله سيجعله ذكراً؛ لأن الأمر الذي نذرته له، وهو التفرغ للعبادة، وخدمة المعبد، لا يصلح له ـ في ظنها ـ إلا الذكر، كما جرت بذلك عادة بني إسرائيل في هِبَةِ الذكور دون الإناث لتلك المهمة.

ومع هذا فهي لم تتراجع عن نَذْرِها، وتسميتها لمولودتها «مريم»؛ أي «العابدة»،

(١) تفسير الطبري، ٦/ ٣٢٨.

ويؤكد ذلك ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وقد استجاب الله دعاءَ امرأة عمران، وأعاذ مريم وابنها من الشيطان الرجيم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسُّه حين يولد، فيستهل صارخاً من مسِّ الشيطان إياه إلا مريمَ وابنها**»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾»[(١)].

وقد تقبل الله مريم بقبول حسن، وإن إعطاء القرآن صفة الحسن للقبول؛ يفيد أن مريم عليها السلام حظيت بعناية إلهية خاصة، منها: أنه ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، كما أن إضافة صفة «الحسن» للقبول فيه أيضاً رفع لمكانة «مريم» الأنثى؛ حتى لا يقول أحدهم: إن الله تقبلها رغم أنها أنثى بما فيها من نقص، وعدم أهلية وكفاءة، وأنها لم تكن تصلح تماماً لأداء المهمة التي نُذرت لها..، فجاء التوضيح أن قبول الله لها لم يكن استثناءً، ولا «جبر خاطر»، وإنما لأن الله يعلم أنها تصلح تماماً لهذه المهمة، وهذا ما يؤكده قوله تعالى لاحقاً على لسان الملائكة: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٤٢].

فالاصطفاء الأول في هذه الآية هو اصطفاء الله لها لعبادته وخدمة بيته المقدس.

وفي هذا ردٌّ على الذين يستشهدون بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾، في عدم المساواة بين الرجل والمرأة؛ صحيح إن الذكر ـ في الأصل ـ ليس كالأنثى في البنية والتركيب الجسماني، وبالتالي ما يترتب على ذلك من مقدرة على القيام بمختلف أنواع الأعمال والمهام، لكنَّ ذلك لا ينتقص من مكانة المرأة ومنزلتها؛

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٣٤، النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم٤/ ١٨٣٨، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

فالذكر يتساوى مع الأنثى في تكاليف العبادات ـ إلا ما تقتضيه طبيعة المرأة ببعض الرُّخَص ـ ويتساوى مع الأنثى في الثواب والعقاب ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا..﴾ [النور: ٢]، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

إذن فالذَّكَر والأنثى يتساويان في أمور عديدة، ويختلفان في أمور معدودة، فيتقدم الرجلُ المرأةَ في مواطنَ لا تصلح لها المرأة، أو هو أقدر منها على أدائها، وتتقدم المرأةُ الرجلَ في مواطنَ لا يصلح لها الرجل، أو هي أقدر منه على أدائها، وبالتالي لا يمكننا قبول القول «بمساواة المرأة بالرجل»، أو قبول نقيضه، وإنما القول الفصل في ذلك ما قاله الله في قرآنه ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ الرجل والأنثى من نفس واحدة، يُـتِمُّ أحدُهما الآخر ويكمله ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]، كالحال في الليل والنهار، تتكامل بهما الحياة، ولا يغني أحدهما عن الآخر، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١ - ٤].

ثانياً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

ويعني ـ حسب ما ذهب إليه عددٌ من المفسرين ـ جعلها شكلاً مليحاً، ومنظراً بهيجاً، ويسَّر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده، تتعلم منهم العلم والخير والدين[١].

ومع أني أرى في هذا التفسير وجاهةً إلا أني أضيف له أن لفظ «الإنبات» فيه إشارة إلى النمو المتدرج، بمعنى أن الله تعهَّد نشأتها، فترعرعت على عين الله الذي حفظها، وأحسن نشأتها، خَلْقاً وخُلُقاً.

---

(١) ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٢١، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م،مكتبة الصفا ـ القاهرة.

وفي هذا إشارة إلى ضرورة تعهد الأولاد منذ الصغر، وتربيتهم التربية الحسنة، وعدم الغفلة عنهم، أو تجاهلهم في أيِّ مرحلةٍ من مراحل نضجهم.

ثالثاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

المحراب هو أشرف المجالس؛ لكونه مخصَّصاً للعبادة، فيه يحارب الشيطان، وكان لا يدخل عليها إلا هو وحده[١]، وقوله ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أيْ طعاماً، وأضاف كثير من المفسرين أنه كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وسواء أكان هذا القول دقيقاً أم مجردَ تَصَوُّرٍ وتحليل؛ فإن الذي يهمنا أنه كان يجد عندها «رزقاً» هو من عند الله، لم تبذل هي ولا غيرُها من البشر أيَّ جهدٍ فيه.

وسؤال زكريا عن هذا الرزق مستخدماً لفظ أنَّى فيه من الاستغراب والاستهجان أكثر مما فيه من طلب معرفة المصدر.

ويأتي الجواب البليغ من مريمَ عليها السلام ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

لطيفة: سألني أحد الإخوة سؤالاً حيَّرني لسويعات قبل أن أجد له جواباً، وأسأل الله أن أكون قد وُفِّقْتُ فيه للصواب.

قال الأخ: لماذا كان الرزق يأتي مريم، وهي في محرابها دون أيِّ جهدٍ أو بذلٍ من جانبها، ولو كان رمزياً.. وقد كانت في كامل قوتها، وهي قادرة على الحركة والسعي والكسب، فيما طلب منها وهي في أضعف حالاتها: «حالة المخاض والولادة» أن تبذل جهداً ـ ولو رمزياً ـ؛ لتحصل على الرزق ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]؟

---

(١) حوى، سعيد، الأساس في التفسير، ٢/ ٧٦٣، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، دار السلام للطباعة والنشر.

صحيح إنه جهدٌ رمزيّ، فلا يعقل أن تستطيع المرأة بعد ولادتها بلحظات، وهي لا تزال مستلقيةً ينزف دمها، وجنينها تحتها، أن تهزَّ بقوّةٍ جذعَ النخلة العظيم ـ الذي لاذت به، واستندت إليه من شدة الألم ـ، فَتُسقط بقوة هزتها «الرُّطَبَ الجنيّ»! لكنه جهد، وطُلب منها أن تبذله، وكان الله قادراً على أن يأتيها به دون أن تهزَّ الجذع، وقد أفاض الكثير من العلماء والمفسرين في ذكر الحكمة من وراء هذا الطلب منها، وملخصه: أن الرزق بيد الله، ولكنَّ تحصيله يحتاج لسعي وبذل وجهد، وعلى كلِّ واحدٍ أن يبذل جهده لتحصيله، حتى ولو كان بسيطاً محدوداً، لأن الرزق المكتوب لا يتحصل إلا بالأخذ بالأسباب، فإن السماء لا تُمطر ذهباً ولا فضة، مع التوكل على الله حقَّ تَوَكُّلِه؛ لِيرزقَكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً، وتروح بِطاناً.

ونعود لسؤالنا: لماذا طلب منها بذل الجهد هنا، ولم يطلب منها بذله هناك؟

وللإجابة عن هذا السؤال علينا أن نعود ونستذكر نَذْرَ امرأة عمران، فامرأةُ عمرانَ نذرت ما في بطنها «مُحَرَّراً» لله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ [آل عمران: ٣٥]، وقد قلتُ: إن لفظ «مُحَرَّراً» يعني: «المعتق المتفرِّغ الخالص للعبادة وخدمة الله، بخدمة بيت المقدس، فنذرت ألَّا يكون لأحد يَدٌ عليه، ولا يُستخدم لغرض خاص»(١).

وقد تقبلها الله ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، وبالتالي أصبحت مريم خالصة لله، تستفرغ كلَّ جهدها ووقتها في طاعة الله، وخدمةِ المعبد، وعندما قامت بدورها على أتمِّ وجهٍ، وكانت خالصة مخلصة لله؛ فإن الله جلَّ وعلا في المقابل أوفى بعهده نحوها، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟! [التوبة: ١١١]، فكان أن أمّن لها رزقها، دون أيِّ جهد منها، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، ولأن هذا الرزق هو وفاء وجزاء،

(١) الأساس في التفسير، ٢/ ٧٦١.

وعطاء خالص من الله، ويفسد خلوصه لو كان لمريمَ جزءٌ من الجهد والسعي فيه، فإنه كان يأتيها في محرابها بغير جهد منها، أما بعد أن خرجت من المحراب بعد حملها بعيسى ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ [مريم: ٢٢]، وبعد أنِ اعترى خلوصها واستسلامها لإرادة الله شيءٌ من التخوف، والتحسب، والقلق، والتذمر، حتى إنها قالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[مريم: ٢٣]، وبعد أن كان لها ممَّا في بطنها نصيب دنيوي؛ فإنه أصبح يجري عليها ما يجري على سائر الناس من طلب السعي والبذل؛ لتحصيل الرزق، فأمرها أن تهزَّ إليها بجذع النخلة ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، لكنها تبقى مريمَ الصِّدِّيقَة أمَّ عيسى، كلمةِ الله، وروحٍ منه، فأكرمها الله بأن جعل تحتها «سَرِيّاً»؛ أيْ جدولاً من الماء، وأسقط عليها بهزة خفيفة من يدٍ مرتعشة ضعيفة ﴿رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾. والله أعلم.

رابعاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

هنالك: تدلُّ على الزمان، أو المكان، والسياق يشير إلى أنها تدلُّ عليهما معاً، أي في ذلك الزمان والمكان، وأمام تلك الكرامة الربانية البينة الباهرة دعا زكريا ربه أن يهبه ولداً صالحاً، يرثه النبوة، ويرث من آل يعقوب راية الدعوة، وأن يجعله رَضِيّاً.

والدرس الذي نستفيده من هذا هو: اقتناص اللحظات المناسبة للدعاء، ونحن نعلم أن الرسول ﷺ، قد أشار في عدد غير قليل من أحاديثه الشريفة إلى أوقاتٍ وأماكنَ يُستجاب فيها الدعاء، وأعتقد أن العبرة ليست بالمكان ولا بالزمان ابتداءً، إنما هي الحالة التي يكون عليها الداعي، حالة الإيمان واليقين، والخشوع والتضرع، عند الداعي في هذه الأمكنة والأزمنة؛ لأنها تذكِّره بعظمة الله وقدرته وحكمته، فالدعاء في ليلة القدر مثلاً يكون مستجاباً عندما يستشعر الداعي المؤمن عِظَمَ هذه الليلة

وفضلَها، فتخضع نفسه ويخشع قلبه، وتذرف عينه.. ويلهج بالذكر والدعاء لسانه، فذاك الذي يستجاب له.

إن اقتناص سيدنا زكريا عليه السلام كان لتلك الحالة الإيمانية التي لا شكَّ أنها انتابته عندما رأى كرامة الله ماثلة أمام عينيه، وليس للمكان «المحراب» ولا للزمان.

خامساً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: «أي خاطبته الملائكة شفاهاً خطاباً أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خلوته، ومجلس مناجاته»[١].

وقيل: إن المقصود بالملائكة هنا هو جبريل؛ فإن قال قائل: وكيف جاز أن يقال على هذا التأويل ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جمع لا واحد؟ قيل: ذلك جائز في كلام العرب بأن تخبر عن الواحد بلفظ الجمع[٢]، ويكون من اللفظ العام الذي يراد به الخصوص؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فإن لفظ الناس الأول يراد به نعيم بن مسعود، والثاني يراد به أبو سفيان رضي الله عنهما، وقد كان هذا في حمراء الأسد قبل أن يسلمها ببضع سنين.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قال قتادة وغيره: إنما سمي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان[٣]، وكلمة الله تحتمل هنا عيسى؛ لأن تَكَوُّنَه كان بكلمة «كن» بلا أب، وتحتمل كتاب الله[٤]. وأرجح القول الأول؛ لأن التعبير جاء بصيغة المفرد

---

(١) الأساس في التفسير، ٢/ ٧٦٣.
(٢) تفسير الطبري، ٦/ ٣٦٤.
(٣) ابن كثير، ٢/ ٤١.
(٤) الأساس في التفسير، ٢/ ٧٦٣ ـ ٧٦٤.

«كلمة»، وكتاب الله يعبر عنه بصيغة الجمع، وليس المفرد، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ونحو ذلك.

ومعلوم أن يحيى كان مصدقاً لعيسى عليهما السلام.

﴿وَسَيِّدًا﴾: السيادة هي التفوق في الشرف، وسببها في الإسلام الحلم، والعبادة، والعلم، والتقوى، والخلق، والدين، وقد اجتمع ليحيى هذا كلُّه[١].

بهذا التعريف الجامع جمع الشيخ سعيد حوى، ما ذكره المفسرون مفرقاً، وأرى أنه كان في ذلك جَدَّ موفقٍ.

﴿وَحَصُورًا﴾ قال القاضي عياض في كتاب الشفاعة: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوباً من الزواج، أو لا ذَكَرَ له، بل قد أنكر هذا حُذَّاقُ المفسرين، ونُقَّادُ العلماء، وقالوا هذه نقيصة وعيب، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب؛ أيْ لا يأتيها، كان حصوراً عنها، وقيل مانعاً نفسه من الشهوات[٢].

ولعل السرَّ في عزوفه عن الزواج هو رغبته في التفرغ للدعوة؛ أو أن ظروف الملاحقة من بني إسرائيل له لم تسمح بالاستقرار، وقد انتهى إلى الشهادة هو وأبوه، في كثير من الأنبياء الذين قُتلوا بسلاح الطغاة العصاة من بني إسرائيل.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بشارة بنبوة يحيى عليه السلام.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]،

---

(١) الأساس في التفسير، ص٧٦٤.
(٢) المصدر السابق، ص٧٦٤.

نلاحظ أن زكريا عليه السلام قابل بشرى الملائكة بسؤال استهجاني: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ والاستغراب والاستهجان ليس مقصوراً على زكريا ومريم، فهذا إبراهيم عليه السلام لما جاءته الملائكة بالبشرى، استغرب واستهجن الأمر: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۞ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[الحجر:٥٣- ٥٤]، وذات الأمر كان من السيدة «سارة» امرأة إبراهيم عليه السلام ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۞ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:٧١- ٧٢]. فالسؤال هنا سؤال تعجب، وهو لا يتعارض مع الإيمان بقدرة الله على فعل ما يشاء؛ لكن من طبيعة النفس البشرية أن تتعجب إذا ما رأت شيئاً عجيباً، أو أمراً خارقاً للعادة، من هنا نجد أن إبراهيم عليه السلام قد ردَّ ردَّاً جازماً على الملائكة الذين قالوا له: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۞ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٥- ٥٦]. فنفى أنه قنط من رحمة الله، واعتبر أنَ الذين يقنطون من رحمة الله ضالون ناكبون عن الطريق السوي، والصراط المستقيم، وهو بالتالي يربأ بنفسه أن يكون من هؤلاء.

إذن ليس علينا أن نجد مبرراتٍ لاستغراب زكريا وتعجبه من بشرى الملائكة، فهو يبقى بشراً يتفاجأ، ويستغرب، ويستهجن، خاصة إذا كان الأمر متعلِّقاً به، ويحمل تغييراً جزئياً في حياته، وبناءً عليه؛ فلا وجاهة للقول الذي يعلل تساؤل سيدنا زكريا واستغرابه بأن الشيطان جاءه، فقال: إن الصوت الذي سمعت هو من الشيطان.

لطيفة: نجد في هذه الآية الكريمة، أنه قد تقدم قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ على قوله ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾، بينما جاء عكس ذلك في سورة مريم، حيث قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨]، فما سِرُّ ذلك؟

أن تكون المرأة عاقراً، ثم يقال: إنها ستحمل أكثر إثارة للتعجب والاستهجان من كون الرجل طاعناً في السن، وبالتالي فإن الترتيب الذي جاء في سورة مريم هو الأصل، لكن لماذا تغيَّر الترتيب في سورة آل عمران؟

أعتقد ـ وأسأل الله أن أكون قد وُفِّقْتُ للصواب ـ أن سياق الآيات في آل عمران يشير إلى أن البشرى جاءت لزكريا ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾، ولا شك أن وقوف الرجل الطاعن في السن وقتاً طويلاً للصلاة يزيد من شعوره بضعفه ووهنه، ويظهر له ما فعلته السنون به، وأبلغ وصف كان ما وصف به نفسه ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، فلما جاءته البشرى ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي﴾، وقد بلغ التعب والوهن منه مبلغه، كان من المناسب جداً أن يقدم ما يستشعره في تلك اللحظة، ويستحوذ على عقله وفكره، من وهنه وضعفه على ما يعلمه من عقم زوجه.

وانظر إلى جمال التعبير القرآني وروعته المتمثل بقوله ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾، فإنك تشعر بالكلمات كأنما تجسد «الكِبَر» وتصوره مهاجِماً له، نائلاً منه، متلبساً به. وفي هذا الوصف البليغ إضافة تأكيد لما ذهبنا إليه من شدة تأثر زكريا بحالة الإرهاق والتعب من قيامه الطويل للصلاة، والله أعلم.

سادساً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

نجد أن القرآن قد استخدم في هذه الآية الكريمة لفظ «يفعل» فيما استخدم لفظ «يخلق» فيما يخص عيسى عليه السلام ردّاً على تعجب أمه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وقد أشار إلى هذه النقطة الكثير من العلماء والمفسرين، ولن آتي هنا بجديد، غير التذكير والتأكيد. فلفظ «يفعل» يتناسب مع حال زكريا وزوجته؛ إذ إن العملية هي عملية «إصلاح»، وليس خلقاً من عدم؛ ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فتناسب معها لفظ «يفعل»، أما مع مريم؛ فإن الحال مختلف؛ إذْ إن بُيْضةَ

المرأة تحتاج «لحيوان منوي» لحصول التلقيح، ومن ثم الحمل، فاحتاج الأمر لعملية خلق جديد، فتناسب مع حالها لفظ «يخلق»، ومن اللفتات الجمالية هنا أن السياق قد استخدم لفظ يفعل و ليس يعمل؛ لأن الحديث يدور عن فعل مميَّز معجز، وليس فعلاً عادياً: وقد أفردت مبحثاً خاصاً في هذا الكتاب، بَيَّنْتُ فيه الفرق بين لفظي فعل وعمل، ومتى يستخدم هذا اللفظ، ومتى يستخدم ذاك.

سابعاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ [آل عمران: ٤١].

ذكر عدد من المفسرين أن زكريا طلب من الله «الآية»؛ ليعرف بها حَمْلَ امرأته.

وقد جاء في الأساس في التفسير: «علامة أعرف بها الحبل؛ لأتلقى النعمة بالشكر إذا جاءت»[١]. فيما قال ابن كثير: «علامة أَسْتَدِلُّ بها على وجود الولد مني»[٢].

ولا أميل لهذا الرأي، فلا يعقل أن زكريا عليه السلام ـ وهو النبي ـ كان شاكَّاً في قدرة الله على إحداث هذا الأمر، حتى يطلب بيّنةً وأمارة، وإنما طلبها ـ على ما يبدو لي ـ لقومه، وليس لنفسه، فقد أراد علامة أو دلالة يخرج بها على الناس فيصدقونه، وتخشع قلوبهم لذكر الله عندما يخبرهم ببشرى الملائكة له، فكان الردُّ عليه أن الصمت في هذا المقام، مقامِ المعجزات الكبرى التي لا يمكن إلا أن تظهر وتبين لكلِّ ذي عقل وعينين أبلغ من الكلام.

بمعنى دَعِ الحدثَ يتكلم عن نفسه، واترك أمر إثباته لله، وصُنْ لسانك أنت عن نافلة القول، وتنزَّهْ عما يخوض الناس فيه من لَغَطٍ وجدل، فلا ينطلق ولا ينطق إلا بالذكر والتسبيح، وسيكفيك الله ألسنة الناس.

---

(١) الأساس في التفسير، ٢/ ٧٦٤.
(٢) ابن كثير، ٢/ ٢٣.

وهو الأمر ذاته الذي طُلب من مريم أن تواجه بها قومها ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]، لا تشغلي نفسك بإقناع الناس بطهرك وعِفَّتِكِ، دعي أمر ذلك لله، فهو كفيل بهم، وتخصيص «إنسياً» يعني أنها لن تنقطع عن تكليم الله، وذكره، ودعائه.

ثامناً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١].

والسؤال هنا: لماذا تَمَّ تحديد المدة في سورة آل عمران بالأيام ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾، بينما جاء تحديدها في سورة مريم بالليالي ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]؟

جاء في فتح القدير للشوكاني: «إنه قد دلَّ بذكر الليالي في مريم، والأيام في آل عمران، أن المراد ثلاثة أيام ولياليهن»[١]، وهذا حقٌّ، وهو يبيِّن كيف أن آيَ القرآن يُتِمُّ بعضُها بعضاً ويكملها، لكن تخصيص الأيام في آل عمران، والليالي في مريم، يعود لما يقتضيه السياق، وقد علق د. فاضل السامرائي على ذلك بقوله: «إن اختيار الليل في مريم يقتضيه سياق القصة وجوُّها، وكذلك اختيار اليوم في آل عمران، فقوله تعالى في مريم: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] حَسَّنَ ذكر الليل، فإن خفاء النداء يشبه الخفاء في الليل[٢]، وفي هذا يجيء قوله تعالى ﴿مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، أما السياق في سورة آل عمران فهو يختلف تماماً؛ فدعاء زكريا جاء عندما دخل على مريم المحراب، ووجد عندها رزقاً. والأقرب أن يكون دخوله عليها المحراب نهاراً،

---

(١) الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، ٣/ ٤٤٧، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، دار الوفاء ـ المنصورة.

(٢) السامرائي، فاضل، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص١١٩، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، شركة العاتك ـ القاهرة.

وليس ليلاً، والرزق الذي وجده عندها لا بُدَّ أنه كان نهاراً، فناسب أن يعبِّر في سورة آل عمران عن مدة الامتناع عن الكلام بالأيام، وتناسب كذلك لفظ ﴿سَوِيًّا﴾ مع الليالي، ولفظ ﴿رَمْزًا﴾ مع الأيام؛ لأن زكريا، وهو النبي القائم في المعبد، سيعرض له في النهار الكثيرُ من الناس الذين يخاطبونه ويجادلونه، ولا بد من طريقة للتعامل مع هذا الموقف، فلذلك ـ ولرفع الحرج عنه ـ جعل الله له هذه الوسيلة «الرمز»؛ لإيصال ما يريده للناس، والردِّ على تساؤلاتهم دون الحديث معهم، أما الليل فلا حرج عليه إنْ توارى فيه عن الناس، ولم يخاطبهم، ثم إن الرمز يعتمد على الإبصار، ولا يتناسب ذلك مع الليل، وجاء مع الليالي لفظ ﴿سَوِيًّا﴾ والذي يعني: وأنت كامل الخلق، لا خرسَ بك ولا بُكْم، وفي هذا طمأنة له أن عدم مقدرته على الكلام أَمْرٌ عارض، وليس دائماً.

تاسعاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

إذا ما قارنا هذا النص القرآني من سورة آل عمران، بما جاء شبيهاً به في سورة مريم، وجدنا هنالك جملة من الاختلافات، أهمُّها ثلاثة كما يلي:

١ـ إن الخطاب في سورة آل عمران موجَّه لزكريا عليه السلام، وهو النبي الذي تحقَّقت له المعجزة، واستفاد منها بصورة شخصية، باستجابة دعوته، وحصول مراده، إضافةً إلى رؤيته قدرة الله الخارقة بناظريه، فجاء الخطاب له خطابَ عزيمة، فيما لم يرد ذلك في مريم، وخُصَّ به زكريا ضمن خطاب العزيمة حمداً لله على نعمه عامة، وهذه النعمة خاصة.

٢ـ قدَّم العشي على الإبكار ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ في آل عمران؛ ذلك أن التسبيح بالعشي يحتاج إلى عزيمةٍ أكبرَ، فيما جاء في سورة مريم ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً

وَعَشِيًّا ﴾؛ لأنه خطاب للعامة، والرفق بهم، والتخفيف عنهم، أَوْلى.

٣ـ جاء لفظ العشي والإبكار في آل عمران معرفة فيما جاء في مريم نكرة، ويذكر المفسرون أن ال في قوله ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ تفيد العموم، فقد جاء في «البحر المحيط»: والظاهر في قوله ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أن الألف واللام فيهما للعموم، ولا يُراد عشيٌّ تلك الثلاثة الأيام، ولا وقت الإبكار فيها[1].

وبالمجمل؛ فإن الخطاب الموجَّه لزكريا عليه السلام في سورة آل عمران هو خطاب عزيمة، فإن ما هو مطلوب منه بمقتضيات: النبوة، والقيادة، والبُشرى، أكثرُ ممَّا هو مطلوب من عامة الناس وأكبر، لذا نجد في قوله تعالى في سورة مريم ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ١١]، تقديم «للبكرة» على «العشي» كما نلاحظ أنها نكرات، مما يعني أنه قصد التسبيح في أوقات من «البكرة» و»العشي، وليس سائرَ وقتها.

لطيفة: نلاحظ أن التسبيح في سورتي آل عمران ومريم قد اقترن بوقتي: العشي والإبكار، كما ورد مثل ذلك في مواضع أخرى من القرآن، منها في سورة الروم: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم:١٧ - ١٨].

وهنا يظهر لنا دقة التعبير القرآني: فتسبيح الله يعني تنزيهَه عن الشرك وغيرِه، وأعظم وقت ينبغي أن ينزه فيه الله هو وقت رؤية آية من آياته العظيمة في الكون والحياة، تلك التي تشهد له بالوحدانية والعظمة والقدرة، والليل والنهار آيتان ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ [الإسراء: ١٢]. فناسب أن يسبح الله وقت دخول الليل أو إدباره،

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص١٢١.

ووقت طلوع النهار أو إدباره، أما الحمد فمكانه الكون كله ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وأنسب وقتٍ له العشي؛ حيثُ يعود الإنسان إلى بيته بعد كدحٍ وتعبٍ ونصب، وبعد أن يكون قد سعى في هذه الدنيا، واكتسب، ثم خلد إلى الراحة، فحريٌّ به أن يحمد الله أن أعانه على كلِّ ذلك، ووقت الظهيرة: حينما يهجع الإنسان للراحة أو «القيلولة»، وقد أنجز في نصف يومه ما أنجز.

عاشراً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

ليس من قرينة تشير لمكان خطاب الملائكة هذا لمريم أو زمانه، لكني أرجح ـ بناءً على تسلسل الأحداث ـ أنه سبق بشرى الملائكة لها بعيسى عليه السلام، ففي هذه الآية تذكِّر الملائكة مريمَ بنعم الله عليها، التي خُصَّتْ بها دون الناس، وهي ثلاث كما يلي:

١ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾: والمقصود بالاصطفاء هنا هو «القبول الحسن».

٢ـ ﴿وَطَهَّرَكِ﴾: من الكفر والشرك، والأدناس على عمومها.

٣ـ ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: باختيارك لتحملي كلمة الله عيسى، وتكوني أماً له، وقيل المراد بالعالمين هنا هو: «نساء عالم زمانها، وقيل: جميع نساء العالم إلى يوم القيامة، واختاره الزجاج، **وأقول:** بما أن الاصطفاء الثاني معناه كما أسلفنا، فهو اصطفاء خاص لقضية خاصة، وهي «الحمل بكلمة الله»؛ فإن الاصطفاء على نساء العالمين يعني نساء جميع العالم إلى يوم القيامة؛ لأنه لم ولن يحدث لإحداهن مثلما حدث لمريم، فقد رُفعتِ الأقلام، وجَفَّتِ الصحف، والله أعلم.

وبعد تذكير الملائكة لمريم بما خصَّها الله به يأتي «خطاب التكليف»: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

والقنوت: معناه: الطاعة في خشوع، أيْ: اطلبي القيام في الصلاة، أو أديميه[١].

واختلف المفسرون في سبب تقديم السجود على الركوع في هذه الآية، فمنهم من قال: «إنما قدم السجود على الركوع لأفضليته، وهو ما أرجِّحه، وقيل لأن صلاتهم تختلف عن صلاتنا، ولا ترتيب فيها، وقيل: إن الواو جاءت لمجرد الجمع لا الترتيب».

وإنما رَجَّحْتُ القول بتقديم السجود على الركوع لأفضليته؛ لأن السياق يستدعي ذلك، فالخطاب خطاب «إعدادٍ» وتهيئةٍ لمريم عليها السلام لأمر عظيم.. فكما خُوطب زكريا «خطاب عزيمة»: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، وخُوطب محمّدٌ ﷺ خطاب عزيمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:١- ٥]، كان الترتيب المناسب لهذا الخطاب: القنوت أولاً، ثم السجود؛ لأهميته وفضله، ثم الركوع، والله أعلم.

﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، أَوَّلَ بعض المفسرين ذلك بحضِّها على صلاة الجماعة، وأميل للرأي القائل: اركعي مع زمرة الراكعين في أرض الله الواسعة، ولا يلزم ذلك الاجتماع أو الجماعة؛ فإن القرآن قد ذكر أنه من العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

حاديَ عشر: وقفة مع قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، في هذه الآية يذكر القرآن الكريم تفاصيلَ دقيقةً في قصة مريم وزكريا عليهما السلام، وهي غير

(١) فتح القدير، ١/ ٥٦١.

مكشوفة ولا معروفة؛ كدليل على نبوة محمدٍ ﷺ، وفي قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ إشارة واضحة أن القرآن نقل لك صورة الحدث، وجعلك تعلم تفاصيله الدقيقة، كما لو أنك عاصرته وعايشته، مع أنه من أنباء الغيب الماضي التي لم تكن تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا.

ثانيَ عشر: وقفة مع قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

المقصود بالملائكة هنا: هو جبريل عليه السلام، وقد سبق أن تحدثتُ عن الخطاب بصيغة الجمع وإرادة المفرد، وكلمة الله هي الفعل «كن»، واختلف في معنى المسيح؛ فقال بعضهم: سمي كذلك لكثرة سياحته، وقيل: لأنه كان مسيحَ القدمين، أي لا أخمصَ لهما، وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات بَرِئَ بإذن الله تعالى، وقال ابن الأعرابي: المسيح الصديق...، وقيل غير ذلك.

أما «عيسى» فقيل: اسم أعجمي، وقيل عربي، والأرجح أنه عربي؛ لأن اسمه الأعجمي في الإنجيل «يشوع»، و«ابن مريم» إشارة إلى أنه من غير أب، والوجيه: «ذو الوجاهة: وهي القوة والمنعة، ووجاهته في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة، وعلوُّ الدرجة»[1]، وغير ذلك من أَنْعمِ الله عليه.

«المهد»: مضجع الصبي في كونه رضيعاً.

ثالثَ عشر: وقفة مع قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ﴾ [آل عمران: ٤٧].

نلاحظ أن السياق هنا استخدم لفظ ﴿وَلَدٞ﴾ فيما جاء في سورة مريم بلفظ «غلام» والفرق بينهما أن ﴿وَلَدٞ﴾ يشمل الذكر والأنثى، بينما «غلام» يطلق على الذكر

(١) فتح القدير، ١/ ٥٦٤.

فقط، ونلاحظ أن السياق في سورة آل عمران المتعلق ببشرى الملائكة لمريم شمل الكثير من التفصيلات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥- ٤٦]. فجاء الرد على لسان مريم بسؤال التعجب: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ﴾، فدافعُ تعجبِها واستغرابها هنا هو أن تلد دون الاقتران برجل، ووجهت تساؤلها هنا لله ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾، وقابلت ما قُدِّم لها من تفاصيل البشرى بالاستغراب والتعجب من مبدأ أن يكون لها مولود، بغضِّ النظر عن ماهية هذا المولود، وهذه التفاصيل التي قُدِّمت لها، ولو أنها قالت: أنَّى يكون لي غلام في هذا السياق لَفُهِمَ أنها تستغرب حملها «بمولود ذكر»، وهذه جزئية ضمن مجموعة من الجزئيات، فكأنها تسلِّم بباقي الجزئيات والتفصيلات المذكورة، و تجادل ـ فقط في جنس المولود ـ وبالتالي؛ فإن لفظ «ولد» أبلغ في هذا السياق، و يشير إلى أن استهجانها هو من مبدأ الحمل، بمعنى أن تفاصيل صفات المولود التي ذكرت لها استدعت منها أن يكون تعجبها من مبدأ الحمل دون الاقتران برجل؛ لأنه أدقُّ من تعجبها من الحمل بِذَكَر.

فيما السياق في سورة مريم مغاير، فقد بُشِّرت بغلام ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، فكان ما يناسب السياق ويقابله أن تقول ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾، فهي بُشِّرت بغلام، واستغربت أن يكون لها غلام.

لطيفة: هناك اختلاف آخرُ بين الآيتين من سورة آل عمران ومريم، إذْ جاء في سورة آل عمران قولها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧]، بينما جاء في سورة مريم: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

ولو استعرضنا تسلسل الأحداث في سورة مريم لوجدنا أن مريم ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦] ـ ولستُ هنا في معرض الخوض في أسباب هذا

الاعتزال ـ فإذا بها وهي في هذه العزلة تُفاجأ بروح القدس، متمثلاً بصورة رجل سوي الخلق ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، وأمام هذا المشهد تستعيذ المرأة المؤمنة الطاهرة العفيفة العابدة الناسكة بالله من هذا الرجل، فيعلن «هذا الرجل» أنه رسول ربِّ العالمين ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾، وأنه جاء كي يَهَبَ لها غلاماً زكياً، وأمام وقع هاتين المفاجأتين: مفاجأتها برجل غريب يقتحم عليها خُلْوتَها، ومفاجأتها بقوله: إنه رسول ربها؛ ليهب لها غلاماً زكياً.

تقف المرأة الطاهرة العفيفة مذهولة، فتردُّ بسؤال استنكاري تعجبي تدمج فيه تأثرها بكلتا المفاجأتين فتقول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ ردًّا على البشرى بغلام ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، إظهاراً وتأكيداً لطهرها وعفتها، وهي ترى رجلاً غريباً في حجرتها، وهي لا تزال في ريبة من أمره، وهذا يوضح سبب إضافة ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ هنا، وعدم ذكرها في آل عمران. فلم يكن هناك في آل عمران ما يستدعي التأكيد على عفتها، فذاك السياق يبرز القدرة والمعجزة، فَاكْتُفِيَ بذكر العذرية ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، أما السياق في مريم، وظهور الرجل الغريب أمامها، فاستدعى التركيز على الطهر والعفاف، فجاء التأكيد ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، وانظر إلى لفظ ﴿أَكُ﴾ حيثُ يعتبر أدقَّ في النفي من «أكن».

رابعَ عشر: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠].

اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ فقال بعضهم: هي قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، وإنما كان ذلك آية؛ لأن مَنْ قبله من الرسل كانوا يقولون ذلك. ويحتمل أن تكون هذه الآية هي الآية المتقدمة، فتكون تكراراً لقوله:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ﴾ [آل عمران: ٤٩][1].

لطيفة: وأعتقد أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أن عيسى عليه السلام يتكلم بذلك عن نفسه، فهو المولود من غير أب آيةً للناس، ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، وبالتالي فهو يذكرهم بعدما عدد لهم المعجزات التي جاء بها من عند الله أنه هو ذاته معجزة كبرى من الله لهم، ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ والله أعلم.

خامسَ عشر: وقفة مع قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٢-٣].

قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه؛ لئلا يُنسب في طلب الولد إلى الرعونة؛ لكبره، حكاه الماوردي. وقال آخرون: إنما أخفاه؛ لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾، إن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي[2]، وأميل إلى الجمع بين السببين، فقد رحم الله امْرَأً جَبَّ الغيبة عن نفسه، واختار ما هو أحبُّ لله، وقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ..﴾ [البقرة: ١٨٦].

سادسَ عشر: وقفة مع قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

يتوجه زكريا بالدعاء إلى ربه مقدماً وَصْفَ ما آل إليه حاله بأبلغ وصف:

«وزكريا يشكو إلى ربه وَهْنَ العظم، وحين يهن العظم يكون الجسم كلُّه قد

---

(١) فتح القدير، ١/ ٥٦٦.

(٢) ابن كثير، ٥/ ١٢٥.

وهن، فالعظم هو أصلب ما فيه، وهو قوامه الذي يقوم به، ويتجمع عليه، ويشكو إليه كذلك اشتعال الرأس شيباً، والتعبير المصوِّر يجعل الشيب كأنه نار تشتعل، ويجعل الرأس كلِّه كأنما تشمله هذه النار المشتعلة، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد، ووهن العظم، واشتعال الرأس شيباً، كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يعانيه زكريا، ويشكوه إلى ربه، وهو يعرض عليه حاله ورجاءه(١).

سابعَ عشر: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٥-٦].

قال مجاهد، وقتادة والسدي: أراد بالموالي العصبة، وقد «خافهم أن يُغَيِّروا الدين، ولا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عَقِباً صالحاً من صلبه يقتدي به في إحياء الدين»(٢).

ورضياً: أي مرضياً في أخلاقه وأفعاله، وقيل: راضياً بقضائك وقدرك، وقيل: رجلاً صالحاً ترضى عنه، وقيل: نبياً، كما جعلت آباءه أنبياء(٣).

ثامنَ عشر: وقفة مع قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم:١٢-١٣].

انظر إلى دقة التعبير القرآني، وجمال معانيه ومدلولاته وتناسقها!

فقد أَمَرَ يحيى أن يأخذ الكتاب بقوة؛ أيْ «بجدٍّ وعزيمة واجتهاد»، وحتى لا

---

(١) الظلال، ٤/ ٢٣٠٢

(٢) أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط،٧/ ٢٤٠، تحقيق: صدقي محمد جميل، طبعة دار الفكر.

(٣) فتح القدير، ٣/ ٣٢٣.

يفهم أن القوة «قوة السلطة» تعني البطش والتجبر، والغلظة والفظاظة، أتبع السياق هذا الأمر مباشرة بقوله ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾.

قال جمهور المفسرين «الحنان» الرحمة والشفقة، والعطف والمحبة، فهو حنان وعطف، ولين ورحمة، من لدن الله عز وجل، أفرغها في نفس يحيى عليه السلام إفراغاً، «وزكاة»: أيْ خلوصاً وصفاءَ نَفْسٍ، وحتى تحدث الموازنة بين «القوة» والرحمة واللين، كان لا بد من ضابط يضبط هذه العلاقة؛ حتى لا تبغي إحداهما على الأخرى، فلا يأتي اللين ـ أحياناً ـ في موضع الشدة، ولا تأتي الشدة ـ أحياناً ـ في موضع اللين. وهذا الضابط هو «التقوى»، ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾؛ فالتقوى هي الحَكَمُ الضابط والموازن، وهي صمَّام الأمان، ورأس الأمر كله.

تاسعَ عشر: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:١٤- ١٥].

لو قارنا هذا الوصف الذي جاء في هاتين الآيتين ليحيى عليه السلام بالوصف الذي جاء لاحقاً لعيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٢- ٣٣] لوجدنا ثلاثةً من الاختلافات ناسب كلٌّ منها موضعه أحسن مناسبة وأَتَمّها، وهي كما يلي:

١ـ جاء وصف يحيى بخطاب الله عز وجل، بينما ورد وصف عيسى على لسانه عليه السلام، واعتقد بعضهم أن في هذا ميزةً تفضيليةً خُصَّ بها يحيى؛ لكني أرى أنه قد جاء لكلِّ مقامٍ ما يناسبه، فشهادة الله ليحيى شهادة تكريم له وتشريف، لكنها ليست شهادة تفضيل؛ لأن شهادة عيسى بنفسه لنفسه قد جاءت وهو في المهد، فهي بحدِّ ذاتها معجزة قاطعة لقول كلِّ متقوّلٍ عليه، وعلى أمه، إذن فحال عيسى مخالف لحال يحيى، فجاءت شهادته لنفسه، ولفضل الله، وكرمه عليه هي الأنسب والأقوى.

أما شهادة الله ليحيى فهي تكريم له وتشريف؛ بما هو أهل له، فكان لكلِّ مقامٍ ما يناسبه من مقال.

٢ـ استخدم في وصف يحيى لفظ ﴿عَصِيًّا﴾، بينما في وصف عيسى لفظ ﴿شَقِيًّا﴾، ولفظ عصيًّا يعني أنه لم يكن عاصياً لوالديه أو لربه، وانظر إلى دقة التعبير القرآني وروعته؛ فلفظ ﴿عَصِيًّا﴾ مناسب جداً لحال يحيى؛ لأنه مولود لأب وأم، ولأن أباه «زكريا» لمَّا دعا ربَّه أن يهب له ﴿وَلِيًّا﴾؛ دعاه أن يكون هذا الغلام ﴿رَضِيًّا﴾. ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: تعني أنه كان رضياً، فيما عيسى عليه السلام مولود لأمٍّ دون أبٍ، ومن شأن الولد الذي لا ينسب لأب أن يوصف بالشقي، وأن يكون مثار هَمْزِ الناس ولمزهم، مما يجلب له الشقاء، فكان لنفي هذه الصفة عن نفسه بنفسه أهميةٌ أكبرُ من نفي العصيان عنها.

٣ـ استخدم في الحديث عن يحيى لفظ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ بصيغة النكرة، في حين جاء اللفظ معرفاً فيما يخص عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ﴾.

قال الكرماني: أنه نكَّر في ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾، وعرَّف في ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾؛ لأن الأول من الله تعالى، والقليل منه كثير، والثاني من عيسى عليه السلام، والألف واللام لاستغراق الجنس، ولا يبلغ سلامه عُشْرَ معشارِ سلام الله عليه[١].

بمعنى أن الله عندما يتحدث عن نعمة أنعمها على عبد من عباده هي بالنسبة لجنس الكثير مما ما عنده من هذه النعمة قليل، لكن عندما يتحدث الإنسان عن نعمةٍ أنعمها الله عليه فهو يراها كبيرة، وإن كانت فيما عند الله قليلة.

---

(١) يحيى، عماد عبد، تاج القراء، البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، ص١٣٢ - ١٣٣، ط١، ٢٠٠٩م، دار دجلة ـ الأردن.

ومع أني أميل لهذا الرأي من بين آراءٍ كثيرةٍ مغايرةٍ له، إلا أني أضيف له أن «السلام» الذي لعيسى ﴿وَيَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أكبر من السلام الذي ليحيى في هذه الحالات الثلاث.

أ ـ فميلاد عيسى يختلف عن ميلاد يحيى، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ الذي كان له في هذه الحالة لم يكن لغيره من الناس؛ فقد أعاذه الله من الشيطان، كما ورد في الحديث الذي أوردته سابقاً؛ فضلاً عن أن عيسى عليه السلام تكلم وهو في المهد، وجعل الله لأمِّه بعد ميلاده من تحتها ﴿سَرِيًّا﴾، وتَساقطَ عليها الرُّطَبُ الجَنِيّ.

ب ـ أما «**يوم يموت**»: فلا شك أيضاً أن حال عيسى فيها مميز؛ فقد زعم يهود أنهم قتلوا عيسى، وقد بيَّن الله في القرآن الكريم أنهم ما قتلوه وما صلبوه، ولكن شُبِّهَ لهم، وأن الله رفعه إليه، وإذا اعتبرنا أن رفع الله جل جلاله لعيسى هو «وفاةً له»، كما نستنبط ذلك من سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، ومن سورة آل عمران ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران:٥٥]، أو أن الله قد قبض روح عيسى عليه السلام بعد أن رفعه الله إليه، كما ذهب إلى ذلك كثيرٌ من العلماء، ففي ذلك السلام ميزةٌ لعيسى عليه السلام، وهو الذي لم يَحْظَ بمثله أحدٌ من الخلق.

ج ـ وأما الحالة الثالثة: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾، فأرجح أن المقصود بها يوم القيامة، وليس نزوله إلى الدنيا قبل قيام الساعة؛ ليملأها عدلاً، كما مُلِئَتْ جوراً، فيكون الله قد خصَّه بالسلام والأمن في هذا اليوم العظيم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، يوم الآخرة ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، ومن ذلك أن يكون من الذين هم ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، والله أعلم.

* * *

المبحث الثاني
وقفات تأملية مع قصة موسى
والخضر عليهما السلام

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۞ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۞ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۞ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۞ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۞ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۞ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۞ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۞ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۞ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۞ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۞ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ۞ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۞ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ۞ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۞ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۞ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۞ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ

أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۞ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٠- ٨٢].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾.

﴿**فَتَىٰهُ**﴾: أجمع المفسرون أنه يوشع بن نون. ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾: لا أزال أسير. ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: ملتقاهما. ورجح المفسرون أن المقصود بالبحرين هما: البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. ﴿حُقُبًا﴾: قال الجوهري: الحُقب: ثمانون سنة، وقال النحاس الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة: زمان من الدهر مبهم غير محدود(١).

والدرس الذي نستفيده من هذه الآية الكريمة هو: الإصرار والتصميم على بلوغ الغاية المنشودة، مهما كلف ذلك من جهد، ووقت.

وأن تبدأ القصة «قصة موسى مع الخضر» بذكر الإصرار والعزيمة والتصميم، فهذا يشير إلى أن ذلك هو أول ما ينبغي لصاحب الغاية والهدف، وطالب العلم أن يتزود به، فبدونه سيكون كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح!

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾: أي ملتقى البحرين. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: قال المفسرون إنهما تزودا حوتاً مملَّحاً، فكانا يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام(٢).

---

(١) فتح القدير، ٣/ ٤١١.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٤١١.

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ السَّرَب: المسلك والمنفذ. وقيل هو: النفق الذي يكون في الأرض للضب ونحوه من الحيوانات، والمعنى أن السمكة الميتة التي اتخذاها زاداً لهما، قد عادت لها الحياة، وشقت طريقها من اليابسة إلى البحر.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

لما جاوزا «مجمع البحرين» لم يدركا أنه غايتهما المنشودة؛ قال موسى لفتاه ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فيه إشارة إلى أن طلب موسى من فتاه إحضار الطعام كان وقت الظهيرة. ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾: أيْ تعباً وإعياء، و إنما يشتدُّ ذلك على المسافر وقت الظهيرة.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

معنى الاستفهام تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناكَ، مع كون ذلك الأمر ممَّا لا يُنْسَى؛ لأنه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة، والتقدير: أرأيت ما نابني، أو ما دهاني، في ذلك الوقت والمكان، وتلك الصخرة كانت عند مجمع البحرين الذي هو الموعد.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، وموضع التعجب: «أن يحيا حوت قد مات، وأُكِلَ شِقُّه، ثم يثب إلى البحر، ويبقى أثر حركته في الماء، لا يمحو أثرها جريان ماء البحر»[1].

وواضح من منطوق النصِّ أن النسيان كان من «موسى وفتاه».

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾؛ ذلك أنهما أويا إلى الصخرة معاً، وغادراها معاً..، لكن مسؤولية

(١) فتح القدير، ٣/ ٤١٢- ٤١٣.

حفظ الطعام «الحوت» تقع في الأساس على الفتى، وهو بدوره أعلن عن تحمُّلِهِ المسؤولية بشكل فردي، ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾، وعزا حدث النسيان الذي وقع له إلى الشيطان ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾؛ لأن الزاد للمسافر ليس بالشيء الذي ينسى، وإنساء الشيطان للإنسان يكون بإلقاء الخواطر الشاغلة والصارفة للذهن في قلبه وعقله.

وهذا درس في تحمِّلِ المسؤولية، وعدم التنصل منها، نستقيه من هذه الآية الكريمة.

ولو نظرنا إلى لفظ ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾ لوجدنا أن الهاء مضمومة مع أن الأصل كسرها.. ونحو ذلك في بناء الضمير على الضم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾.

وتعليقاً على هذا الموضوع جاء في كتاب بلاغة الكلمة للسامرائي قوله: ينبغي لنا قبل أن نجيب على السؤال أن نشير إلى حقيقة لغوية معلومة، اتفق عليها علماء اللغة قديماً وحديثاً، وهي أن الضمة أقوى الحركات وأثقلها، ثم تليها الكسرة، ثم تليها الفتحة وهي أخفُّ الحركات.. فناسب الضم هنا جهتين:

١ـ قوة الحركة، أي الضمة، وهي مناسبة لقوة النسيان.

٢ـ ندرة هذه الحركة في مثل هذا الموطن، مناسبة لندرة النسيان في مثل هذا الموطن[١].

وقد يسأل سائل: كيف نسي الفتى الحوت، وفي ذات الوقت رآه يتخذ سبيله في البحر سرباً؟

والجواب: لابُدَّ أن نسيانه للحوت كان لوقت قصير، بمعنى أنه ما كاد يبتعد عنه حتى رآه تدبُّ فيه الحياة، ويتخذ سبيله إلى البحر.

---

(١) بلاغة الكلمة، ص ١٠٢ - ١٠٣.

وأسئلة أخرى يمكن أن تُثار هنا، منها: هل نسي الفتى أن يخبر موسى بهذا الأمر الباهر العجيب الذي حدث أمامه؟ أم أنه آثر عدم إخباره لسببٍ أو لآخرَ؛ كالخوف والرهبة؟.

وهل كان موسى بعيداً عن فتاه كل هذه المسافة؛ بحيث لا يرى ما رآه فتاه؟

ولا أرى طائلاً في البحث في هذه الأسئلة، فالذي يهمنا هنا هو أننا أمام آية عظيمة من آيات الله، أحدثها لحكمة أرادها، فَلنُعْرِضْ عن هذا إذن، ولْنبحثْ فيما يُستقَى منه العبرة والحكمة والموعظة الحسنة.

لطيفة: ما الحكمة من اختيار الله «مجمع البحرين» ليكون مكان اللقاء بين موسى والخضر؟

إن الْتقاء موسى عليه السلام بالخضر، مع ما يحمله كلٌّ منهما من علم، هو أشبه ما يكون بالْتقاء بحرين عظيمين، وانظر إلى مناسبة اللقاء والإيحاءات التي يحملها، كما جاء في سبب تلك الرحلة.

عن أُبيٍّ بنِ كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِلَ: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه؛ إذْ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: يا رب؛ فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً، تجعله بمكتل، فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثَمَّ...**»[1].

فمناسبة اللقاء إذن هي العلم، ومكان اللقاء وعلامته لهما ارتباط وثيق بالعلم، فعلامة اللقاء هي كما أسلفنا: **النسيان، والحدث العجيب المعجز**، ونحن نعلم أن آفة العلم النسيان، وما دام العالم والمتعلم ينسيان؛ فإن في علمهما نقصاً وضعفاً..؛

(١) صحيح البخاري٤/ ١٥٤.

وحتى لا يغترَنَّ عالم بعلمه، ولا يزهو، ولا يفتخر، قضى الله النسيان على سائر البشر، من هنا تتضح لنا الحكمة من جعل «النسيان» علامة اللقاء بين موسى والخضر..، فهي إشارة، مفادها: لا تَنْسَ أيها العالم أنك تنسى! أما المعجزة: فهي إشارة إلى أن علم البشر محصور بما يتصوره عقلهم، وما يخضع لمنطقهم، وما هو إلا جزءٌ يسيرٌ من العلم، فالله يُحدث في هذا الكون ما لا يتصوره العقل البشري، ولا يتوقعه، ولا يخطر له ببال، وهذا هو موضوع رحلة موسى الشيقة الشاقة مع العبد الصالح.

ويؤكد هذا المضمون ما ورد في حديث أبيِّ بن كعبٍ السابق عن الرسول ﷺ: «...**فجاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر لموسى عليهما السلام: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر!**»

قال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾.

أيْ قال موسى لفتاه لما أخبره عن أمر الحوت، في ذلك المكان، ذلك ما كنا نريده، فالرجل الذي نريده هنالك. ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾، أي: قفلا راجعين يقصان أثرهما، كي لا يضلا طريقهما.

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾.

الذي عليه جمهور المفسرين، والذي ثبت بالأحاديث الصحيحة أنه الخضر.

ونجد هنا أن الله سبحانه وتعالى قدَّم الرحمة على العلم، وتقديم الرحمة على العلم، ورد أيضاً في سورة غافر ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]. مع أن العلم قُدِّم على الإيمان، كما جاء في سورة الروم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الروم: ٥٦]، وفي هذا إشارة إلى أن العلم إذا جُرِّد من الرحمة، انفلت من عقاله، فضرَّ بدل أن ينفع، وأصبح وبالاً على الناس، كما هو حاصل في هذا الزمان من تسارع

العلماء، وتسابقهم في صناعة أسلحة الإبادة والتدمير الشامل، والمواد والأدوات الضارة بالإنسان والحيوان.

كما أن في تقديم الرحمة على العلم في هذه الآية إشارة إلى ما سيشاهده موسى عليه السلام برفقة العبد الصالح، وإن كان في ظاهره القسوة والغلظة، إلا أن حقيقته الرحمة، والقصة بمجملها فيها إشارة إلى أن ما يقع للناس في هذه الدنيا من أمور وأهوال، و يرون فيها الشر والضر، لها وجهٌ آخرُ فيه الخير والرحمة، ولو كشف لهم الغيب، ثم خُيِّـرُوا لما اختاروا غير الواقع.

ومن جمال التعبير القرآني ـ أيضاً ـ أن «الرحمة» جاءت مقترنة بلفظ ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾، أما العلم فاقترن بلفظ ﴿مِن لَّدُنَّا﴾. ومعلوم أن لفظ ﴿لَّدُنَّا﴾ أخصُّ، ويشير للقرب والذاتية أكثر من لفظ ﴿عِندِنَا﴾، ومع أن الرحمة قُدِّمت على العلم في هذا السياق؛ لأنها ـ كما أسلفنا ـ تضبط العلم، وتوجهه الوجهة السليمة، إلا أن العلم يبقى محتفظاً بأهميته، وميزته الخاصة..، والعلم الذي آتاه الله الخضر علمان: علم مكتسب، يتم تحصيله بالتعلم، والخبرة والتجربة، وعلم خصَّه الله به من دون أيِّ جهدٍ أو بذل منه، وهو من علم الله «علم الغيب» ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦- ٢٧].

وهذا العلم الذي يطلق عليه بعض الناس «العلم اللدني» هو منحة من الله عز وجل، لا يظهر عليه إلا من ارتضى واصطفى من عباده، غير أن لهذا العلم أثراً يمكن إدراكه والاستفادة منه، وهو الذي طلب موسى عليه السلام من الخضر أن يعلمه إياه، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟ ويرد الخضر على موسى بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وأراد الرجل الصالح ذو العلم اللدني أن يعبِّر عن ثقته بعدم استطاعة موسى الصبر معه، فاستعمل لن التي تفيد النفي الدال على

المستقبل المؤكد بالحرف «إنَّ» المقيَّد بمعيته، فالحرف «لن» هنا لم يُفِدْ تأبيد النفي كما قال بعض النحاة، ومنه قول الناظم:

ومَـنْ رأى النفـيَ بلـنْ مؤبـداً فقولَـه ارْدُدْ، وسـواه فَاعْضُـدا

وممَّا يؤكد دلالتها على الاستقبال قول موسى ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾[1] بحرف التنفيس الدال عليه.

ويعلل الخضر عدم استطاعة موسى الصبر معه، بقوله ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾.

ونلاحظ أن النصَّ قد استخدم لفظ ﴿تُحِطْ﴾، بمعنى أن هذه الدراية والمعرفة يلزم أن تشمل الأمر من جميع جوانبه وزواياه، فتحيطَ به كإحاطة السِّوار بالمعصم، وإذا أحيط بالشيء علماً فقد علم من كلِّ وجهٍ يصحُّ أن يعلم منه، وإذا لم يعلم الشيء مشاهدة لم يكن علمه أحاطه[2].

وكذلك استخدام لفظ ﴿خُبْرًا﴾ أدقُّ في المعنى، وأكثر تناسباً وتناسقاً مع «تحط»، من لفظ «علماً»، و«خبراً» تعني المعرفة الشاملة الكاملة بالأمر، ومتعلقاته، مع التجربة المسبقة، والخبير بالأمور: هو العالم بخفاياها، وما يحتاج إلى الاختبار منها[3].

وأمام إصرار موسى، وتأكيده على التزام الصبر والطاعة، بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، وافق الخضر على رفقة موسى له مشترطاً: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

---

(١) البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، ١٧٣ - ١٧٤.

(٢) العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية، ص١٠٩، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٣) فتح القدير، ٣/ ٤١٣.

وانظر إلى لفظ ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى﴾؛ فقد جاء بإثبات الياء، فيما جاء في مواضعَ أخرى من القرآن بحذفها؛ مثل ما ورد في سورة هود: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦- ٤٧]، وأعتقد أن إثبات الياء جاء بغرض نهي موسى عن الإلحاح والإكثار من السؤال.

ومعلوم أن موسى سأل الخضر أكثر من مرة، أما في سورة هود فنهى الله نوحاً عن سؤاله ما ليس له به علم، وهو نهيٌ قاطع لا يُقبل القليل منه ولا الكثير، وحول هذه المسألة أنصح بمراجعة كتاب بلاغة الكلمة للسامرائي.

ويمضي موسى مع الخضر في رحلتهما الاستكشافية العلمية العملية رحلة «العالم والمتعلم».

ويكون الموقف الأول:

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١].

وذكر المفسرون أن خرق الخضر للسفينة كان بنزع أحد الألواح الخشبية منها، والإِمْرُ: الأمر العجيب المستهجن المستنكر.

وانظر كيف جاء هذا اللفظ في مكانه المناسب، وعبَّر بدقة عن المعنى المراد، فالإمر: «العجب الظاهر المكشوف، والشاهد أن أصل الكلمة الظهور، ومنه قيل للعَلَامة الأَمَارة لظهورها، والإمر والأمارة ظاهر الحال، وفي القرآن الكريم ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾»[1]، فتناسب هذا اللفظ مع فعل الخرق، حيثُ الفعل العجيب ظاهر التخريب.

---

(١) الفروق اللغوية، ص٢٨٨.

وأمام هذا الفعل التخريبي المستنكَر لم يستطع موسى إلا أن يعلن إنكاره: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، وهنا يذكِّره الخضر بما قاله له، ونبَّهه إليه مسبقاً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وفي هذا تعريض بالشرط الذي اشترطه عليه بما يفهمه موسى، فيرد: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

وينطلقان ليقفا عند المشهد التالي:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

ومرة أخرى يقف موسى أمام فعل منكر هو أشدُّ من الذي سبقه؛ إذْ فيه إزهاق نفس زكية بريئة، دون ذنب اقترفته، فكيف لموسى عليه السلام أن يسكت على هذا العمل ولا ينكره؟! قال: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾. ولفظ ﴿نُّكْرًا﴾ أقوى وأشدَّ من إمْراً، واسْتُخْدِمَ هنا لكون القتل إزهاقاً لروحٍ لا يمكن إرجاعها، أما خرق السفينة فيمكن تداركه وإصلاحه..، وواضح أن خرق السفينة كان القصد منه إظهارَ عيبٍ محدود فيها، لا يفضي لغرقها، وذلك حتى لا يطمع فيها الملك، واعتبار موسى أنه يمكن أن يؤدي لغرقها هو من باب التحسب للمستقبل إنْ لم يَتِمَّ إصلاحها، فلا يعقل أن يحدثُ فيها الخضر خرقاً كبيراً، يهدد بغرقها، وهما راكبان على ظهرها.

ومع تشديد موسى لنبرة الاستنكار، وخرقه للمرة الثانية شرطَ الخضر، يشدد الخضر هو الآخر من عبارات تذكير موسى ولومه وتنبيهه، بإضافة «لك»: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. فيتذكر موسى التزامه ووعده، ويقرُّ بتجاوزه الثاني، ويضع نفسه أمام فرصة أخيرة، قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾. قد أعذرت إليّ؛ إذْ صبرتَ عليَّ مرتين، فلا عذرَ ليَ بعدهما إنْ عدتُ لها.

ويكملان مسيرهما، فيصلا إلى الموقف الثالث والأخير:

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٧].

لطيفة: انظر إلى جمال التصوير في عبارة ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، فمع أن الجدار جماد، والجماد لا إرادة له، إلا أن النصَّ قد استخدم تعبيراً مجازياً يشعر القارئ بأن الخضر تدارك الجدار في اللحظة الأخيرة، قبل أن ينقض، فيصوره وكأنما يئس مما آل إليه حاله، فقرر «الانتحار»!

ومع أن الأمر الذي فعله الخضر هذه المرة مغاير، وظاهره فعل خيرٍ، وليس شراً كسابقيه، ولا يصعب على النفس السكوت عليه، إلا أن موسى بطبيعته الثائرة، المنتفضة على الظلم المنتصرة للحق، كما فصَّلها لنا القرآن الكريم؛ إن في انتصاره للرجل من شيعته، أو أخذه بلحية أخيه، وإلقائه الألواح، لم يستطع أن يصبر حتى على هذه، قال: ﴿قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾.

وبهذه المخالفة الثالثة، وبخرقه لشرط الخضر، أنهى الخضر رحلته مع موسى عليه السلام، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٨].

ونلاحظ هنا استخدام لفظ ﴿تَسۡتَطِع﴾ فيما استخدم لفظ ﴿تَسۡطِع﴾ بعد إخباره بتأويل هذه الأفعال ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾. وهذا من جمال التعبير القرآني، فموسى لم يستطع الصبر على أفعال الخضر، وثقلت عليه، فناسب استخدام لفظ ﴿تَسۡتَطِع﴾ الذي في جرسه الصعوبة والثقل، مع هذه الحالة، أما بعد أن نبأه بتأويلها، وتبين له ما كان مخفياً وراءها، بدت يسيرة، مستساغة، فناسب استخدام لفظ ﴿تَسۡطِع﴾ الذي فيه سهولة وخفة.

وذات الأمر جاء لاحقاً في السورة في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ [الكهف: ٩٧].

فاستخدم لفظ ﴿ٱسۡطَٰعُواْ﴾ مع الظهور الذي فيه خفة وهدوء، ولفظ ﴿ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ مع النقب الذي فيه ضجيج و صخب، ومع أن هذه اللفتة ذكرها، وتنبه إليها كثير من العلماء والمفسرين؛ إلا أني أوردها هنا تأكيداً وتذكيراً، مبيناً موضعاً آخر من مواضع بلاغة القرآن ودقة تعبيراته؛ بحيث إن كل كلمة، وكل لفظ، وكل حرف، يأتي في مكانه المناسب، فلا يمكن أن يكون أفصح ولا أبلغ منه إن استبدل به.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف: ٧٩]، وهنا نرى كيف يتجلى ارتباط الرحمة بالعلم، فرحمة الله بالمساكين هي التي جعلت الخضر يعيب السفينة، حتى لا يأخذَها منهم الملك الظالم، وانظر كيف نسب الخرق لنفسه ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾، ولم ينسبه لله أدباً.

﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا * فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ [الكهف: ٨٠- ٨١]، وهنا ينسب الخضر الخشية ﴿أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ لله وله، وكذلك إرادة الاستبدال، لكنه ينسب الاستبدال كفعل لله وحده ﴿أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ فهو وحده القادر على ذلك.

﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ [الكهف: ٨٢]، ويتميز السياق هنا بنسبة الخضر إرادة الفعل لله وحده ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ والسر في ذلك يكمن في كون أبيهما صالحاً، فصلاح الأب في الدنيا، وحفظه لحدود الله، جعله الله سبباً يحفظ للرجل ذريته من بعده، وفاءً من الله.

ومرة أخرى يعود السياق ويركز على «الرحمة» وارتباطها بالعلم ﴿رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٢]، ما أنا إلا منفذ لإرادة الله، ومؤتمِرٌ بأمره، فلا يكون في ملكوت الله إلا ما شاء الله أن يكون.

والله أعلم.

❊ ❊ ❊

المبحث الثالث

وقفة مع مؤمن آل فرعون

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ * وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٢٨- ٣٤].

اخْتُلِف في هذا الرجل، فقيل: هو قبطي، وقيل: من بني إسرائيل، وقيل: ابن عمِّ فرعون، واخْتُلِف في اسمه، فقيل: حبيب، وقيل: حزقيل، وقيل: غير ذلك..، وليس يهمنا إلا ما أورده النص؛ إنه من آل فرعون، وأنه من عِلْيةِ القوم، ممن يُستشارون، ويُسمع لقولهم..، فلا يعقل أن فرعون قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، لعامة القوم، وإنما لخاصته و حاشيته، ومستشاريه، وأن الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه كان واحداً من هؤلاء.

ومرافعة «الرجل المؤمن» تشبه إلى حدٍّ بعيد المداخلات في المجالس النيابية..، وفي ذلك إشارة ضمنية على جواز المشاركة في البرلمانات والمجالس النيابية، حتى وإن كانت الحكومات والدول غيرَ إسلامية من حيثُ المبدأ؛ لكنْ يُترك لعلماء الزمان و المكان تحديد الحكم الشرعي لكلِّ حالة بعينها.

إنه رجل وقف موقف حقٍّ خلَّده القرآن الكريم، وهذا هو الدرس الأول الذي نستنبطه من هذه الآيات: أن الرجل الواحد يمكن أن يصنع الكثير، فلا يقولنَّ مؤمن: ما أنا إلا رجل واحد، فماذا يمكنني أن أفعل؟

كم من رجل غيَّر بمواقفه الجريئة، وبعزيمته، وإصراره، وفكره المستنير، وجه التاريخ، والأمثلة أكثر من أن تذكر، ولنا في رسل الله أسوة حسنة، فهذا إبراهيم عليه السلام يصفه ربه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]؛ لأنه علَّم أمة بأكملها الخير والإيمان، وكان قدوة، جامعاً لمكارم الأخلاق، والخصال الحسنة، والتاريخ حافل بالنماذج من الرجال الأفذاذ الذين خلَّدوا ذكرهم، وتركوا خلفهم بصمةً واضحةً، وأثراً بَيِّناً.

إنَّ هذا الرجل المؤمن من آل فرعون، كان بوسعه أن يؤثر السلامة، فيلتزم الصمت، ويقنع نفسه أنه لن يستطيع أن يغيِّر في واقع الأمر شيئاً، وأنه وحيد ضعيف، لا يستطيع حيلة، ولا يملك وسيلة، لو كان فعل ذلك ما كنا سمعنا بخبره، ولما كان القرآن الكريم قد خلَّد موقفه، لكنه قدَّم مصلحة دينه وعقيدته على مصلحته الشخصية، فصدع بكلمة الحق، ونصر عقيدته ودينه بطريقة لَبِقةٍ حكيمة.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾: ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ صفة لرجل، و﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة ثانية، و﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ صفة ثالثة، وكل صفة من هذه الصفات ذكرتُ في السياق لأهميتها:

فكلمة ﴿مُّؤۡمِنٞ﴾، فيها إشارة لأهمية العقيدة، وتأثيرها على سلوك الأفراد، فهي التي تبعث فيهم الهمة والعزيمة، والحماسة والإقدام، ولا فائدةَ تُرْجَى من رجلٍ مجردٍ من الإيمان والعقيدة.

و﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾: فيها إشارة لأهمية الدور الذي يمكن أن يقوم به «المؤمن»، والفائدة التي يمكن أن يؤديَها، إنْ كان بين الأعداء، ومن بني جلدتهم، ويتكلم بلسانهم، فهو الأعرف بقومه، وما يؤثر فيهم، وبمواطن القوة والضعف عندهم.

و﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾: ليس شرطاً أن يكتم «المؤمن» إيمانه حفاظاً على نفسه، مخافة بطش الأعداء به؛ فقد تستدعي الحاجة أو الضرورة من «المؤمن» أن يكتم إيمانه وانتماءه؛ لمصلحة كبرى، يخدم من خلالها دينه ودعوته، ما كانت لتتحقق إلا بالكتمان، وفي سيرة الرسول ﷺ شاهد على ذلك، فقصة نعيم بن مسعود الأشجعيِّ رضي الله عنه، ودوره الهام في تخذيل الأحزاب، والوقيعة بينهم وبين اليهود من بني قريظة مشهورة.

وقد أصبح هذا الأسلوب يستخدم اليوم على نطاق واسع من قبل أجهزة الاستخبارات العالمية، ومن أبشع قصص الجاسوسية ما قرأته قبل أيام، وكشفت تفاصيلَه الصحافةُ العبرية، من أن جهاز المخابرات الصهيوني كان قد درَّب مجموعة من أفراده ممن يتقنون اللغة العربية، من أصول شرقية، بُعَيْدَ النكبة، وقام بزرع عدد منهم؛ ليعيشوا بين العرب الفلسطينيين، مُدَّعِينَ أنهم من المهجَّرين، وبلغ بهم الحدُّ أن تزوَّجوا من نساءٍ عربيات، وكان لهم منهن أولاد وأحفاد! وذكرت الصحيفة أن أحدهم عمل مدرساً للتربية الإسلامية في إحدى المدارس العربية! ولم تكشف المخابرات الإسرائيلية أمرهم إلا بعد مرور خمسين عاماً على تجنيدهم لهذه المهمة بعد وفاة أحدهم.

أما قوله: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾: فقد بدأ الرجل المؤمن به بإنكار ما هم مقدمون عليه من قتل موسى عليه السلام وتشنيعه، ونسب القتل للجميع

﴿أَتَقْتُلُونَ﴾ مع أن الذي أشار بالقتل هو فرعون وحده، وفي ذلك إشارتان:

الأولى: أن الجماعة تتحمل وِزْرَ جريمة القتل، وتصبح شريكة فيها، لسكوتها عليها، وإقرارِها لها.

والثانية: أنه لم يُرِدْ أن يوجِّه التقريع المباشر لفرعون؛ حتى لا يثير حنقه، وغضبه، فيزداد عناداً، وإصراراً على باطله، كما هي طبيعة الطغاة العتاة المتكبرين الذين تأخذهم العزة بالإثم، فحسبهم جهنم، وبئس المهاد.

وقد اعتمد «الرجل المؤمن» في تفظيع ما هم مقدمون على فعله وتشنيعه بدحض حجتهم؛ بأنها لا تستدعي القتل ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، أيقتل رجل لمجرد كلمة بريئة يعبر بها عن إيمانه بالله؟!

ونلاحظ هنا براعة محامي الحق في مدافعته ومرافعته بتركيزه على مبدأ «حرية المعتقد»، وفي مقابل ذلك قام بتقوية موقف «المدافع عنه» بقوله ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أيْ وقد جاءكم بالمعجزات الواضحات، واستخدام لفظ «البينات» للدلالة على المعجزات، فيه تعريض لهم أن هذه المعجزات واضحة لا تقبل تأويلاً ولا جدلاً، ونسبة «البينات» إلى ﴿رَّبِّكُمْ﴾ فيه إشارة أخرى لصحتها، وصدقها، ومعلوم أن موسى عليه السلام جاء فرعون بتسع آيات بينات، لكنا لا نستطيع أن نجزم أيَّ هذه الآيات البينات ـ غير العصا واليد ـ قد وقعت قبل هذه المحاججة بين فرعون و«الرجل المؤمن»؛ غير أنني أرجح أن بعضها قد وقع بعد ذلك، تبعاً لما تدلُّ عليه سياقات الآيات التي تتحدث عن قصة موسى مع فرعون في القرآن الكريم.

ثم ينتقل «الرجل المؤمن» بعد ذلك في «مرافعته»؛ ليستخدم المنطق في عرضه للمصلحة والمفسدة، وهو المنطق المعتبر عند الماديين، الذي يفهمونه، ويؤثر فيهم جيداً.

وقد وضعهم أمام احتمالين: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾، هو وحده من

يتحمل جريرة كذبه أمام الله عز وجل ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، لكنْ إن كان الاحتمال الثاني، وكان موسى صادقاً، فإنكم تعرضون أنفسكم لما توعَّدكم به من العقاب والعذاب، وليس من الحكمة، ولا من العقل، الإقدام على هذه المغامرة غير معروفة العاقبة.

وقد اختلف المفسرون في سبب استخدام لفظ ﴿بَعْضُ﴾، ونرجح أن موسى عليه السلام توعدهم بأنواع مختلفة من العذاب، فإمّا أن يأتيهم هذا النوع أو ذاك، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

فالتحذير هنا أن يصيبهم الله بواحدة منها، وليس بها جميعاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، وهذا التعقيب يحتمل وجهين؛ أحدهما: يُراد به موسى عليه السلام، بمعنى أن الله لن يوفقه إنْ كان كاذباً، وينفي هذا الوجهَ عن موسى أن الله قد وفَّقه بالبينات والمعجزات.

والثاني: يُراد به فرعونُ وقومُه الذين أسرفوا على أنفسهم، وأسرفوا في فعل المعاصي والآثام، وكَذَبوا على الله، وكذّبوا رسوله.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ويواصل الرجل المؤمن تقديم «مرافعته» مذكِّراً قومَه بما هم فيه من الملك، والعزة، والمنعة، والسؤدد، والاستعلاء، والسيادة، ويحذرهم من تعريض ملكهم للضياع من خلال المواقف والتصرفات الرعناء المتسرعة.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾، ثم يُجمل نفسه فيهم، وهو يذكِّرهم ببأس الله إن جاءهم؛ ليشعرهم أن أمرهم يهمه، فهو واحد منهم، ينتظر مصيره معهم، وهو إذاً

ناصحٌ لهم، مشفق عليهم[١]، وفي شمل نفسه معهم هنا، إشارة أيضاً إلى أن عذاب الله إذا جاء قوماً شمل صالحهم مع طالحهم، كما دلَّت على ذلك عدة أحاديث للرسول ﷺ، «هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كلَّ طاغية توجَّه إليه النصيحة، تأخذه العزة بالإثم، ويرى في النصح الخالص افتياتاً على سلطانه، ونقصاً من نفوذه، ومشاركة له في النفوذ والسلطان»[٢]، فيتعجل في مقاطعة «الرجل المؤمن»، ويستعجل السياق هذه المقاطعة، وهذه الرعونة من فرعون بشكلٍ غايةٍ في الدقة والروعة، حيث جاء قول فرعون موصولاً بقول الرجل المؤمن في ذات الآية، ولم يأت في آية منفصلة، وهذا هو الموضع الوحيد في السورة الذي يأتي فيه حُجَّتا متحاورينِ في آية واحدة.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، قال ابن زيد: ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي، وقال الضحاك: ما أعلمكم إلا ما أعلم، والرؤية هنا هي القلبية لا البصرية[٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هو إفراط في الغرور، ومبالغة بالاعتداد بالنفس، والمعنى أنه صائب الرأي دائماً، ولا يخطئ أبداً.

لكنَّ كلماتِ فرعون هذه، وعنادَه، وإصرارَه على باطله، لا يثني «الرجل المؤمن»، ولا يفتُّ في عزيمته، فيواصل «مرافعته» طارقاً هذه المرة باباً آخر، هو باب الاتِّعاظ بالغير: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ أي مثل اليوم الذي حلَّ فيه العذاب على الأمم السابقة، الذين تحزَّبوا على أنبيائهم، وأفرد اليوم مع أنهم أحزاب مختلفة، وعُذِّبوا في أيام متفرقة متباعدة، في إشارة لطيفة: أنه يوم كرَّر نفسه، وهو قابلٌ أن يتكرر مرة أخرى. ثم يفصل لهم ﴿يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾، فيقول: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، ويعني بدأب هؤلاء الأقوام كفرَهم،

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٣٠٨٠.
(٢) المرجع السابق، ٥/ ٣٠٨٠.
(٣) فتح القدير، ٤/ ٥٦٢.

وتكذيبَهم لرسلهم، واستحقاقهم بالتالي عذاب الله الذي حلَّ بهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾؛ أيْ أن الله لا يعذب قوماً إلا إذا استحقوا ذلك.

ومن تحذيرهم بعذاب الدنيا الذي توعَّدهم به موسى عليه السلام، ينتقل «الرجل المؤمن»؛ ليحذرهم من عذاب الآخرة ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾، وقد اختلف المفسرون في سبب تسمية القيامة بوصف ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾، «قال الضحاك في معناه: إنهم إذا سمعوا بزفير جهنم نَدُّوا هرباً، فلا يأتون قُطْراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ بتشديد الدال، وعلى قراءة الجمهور بتخفيف الدال، والأصل التنادي، فيكون المعنى: يوم ينادي بعضُهم بعضاً، أو ينادي أهلُ الجنة أهلَ النار، وأهلُ النار أهلَ الجنة، أو ينادى فيه بسعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، أو يوم يُنادَى فيه كلُّ أناس بإمامهم، ولا مانعَ من الحمل على جميع هذه المعاني»[1].

إنَّ اختيار لفظ «التَّـنَادِ» هنا متناسب جداً مع سياق التحذير والتخويف والردع؛ حيثُ يَتركُ وقعاً، وأثراً قوياً في النفس ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

ويواصل الرجل المؤمن تخويف قومه، والطَّرْقَ على قلوبهم، فيستفيض في ذكر أهوال يوم القيامة مختصراً المشهد بتصويره القوم العصاة وهم يولون مدبرين، فَزِعِينَ مذعورين من النار، لا يدرون إلى أين يتجهون، وبمن يلوذون، إذْ لا عاصمَ، ولا حاميَ، ولا مانعَ لهم من عذاب الله، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يقول صاحب الظلال: لعل فيها إشارةً خفيةً إلى قول فرعون ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، وتلميحاً بأن الهدى هدى الله، وأن من أضل الله فلا هاديَ له، والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحقُّ الهدى، ومن يستحقُّ الضلال[2].

---

(١) فتح القدير، ٤/ ٥٦٢.

(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ٣٠٨٠.

وفي ختام مرافعته يعقد لهم «الرجل المؤمن» مقارنة بين ماضيهم وحاضرهم، فيذكِّرهم بيوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، ومع أن يوسف قد جاء آباءَهم الأولين؛ إلا أن «الرجل المؤمن» نسب رسالة يوسف لهم ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾؛ لأن دعوته بقيت فيهم، ولأنهم ساروا على آثار آبائهم، وتوارثوا «الشكَّ» منهم، وها هو سيدنا موسى عليه السلام يأتيهم بالبينات، كما جاءهم بها يوسفُ من قبلُ، فلا يتغير حالهم، ولا يتبدل موقفهم، إسراف في المعاصي، وشكٌّ في الرسل، وريبة في الرسالات.

لذلك جاء التعقيب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ مناسباً لحالهم، بمعنى أن من سنة الله في عباده أن تَحِقَّ الضلالة على كلِّ مسرفٍ في المعاصي والآثام، مستمرٍّ في الشك والريبة من دعوة رسل الله له بالإيمان.

ومن الملاحظ أن هذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي تذكر فيه رسالة سيدنا يوسفَ عليه السلام لأهل مصر، وقد يكون ذِكرُ يوسف هنا قد جاء؛ لأنه الرسول الوحيد الذي ثبت إرساله لأهل مصر قبل موسى عليه السلام، وقد يكون «الرجل المؤمن» اختار تذكيرهم بيوسف والخير الذي جلبه عليهم، فهو بذلك يلامس قلوبهم، مع أنهم كانوا في شكٍّ من رسالته.

والله أعلم.

❊ ❊ ❊

المبحث الرابع
وقفة مع آية الآعراف

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۞ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]، وهي تحدثنا عن علماء السوء.

ذكر أكثر المفسرين أن الخطاب في هذه الآية موجَّه لأهل الكتاب، لكن اللفظ عام، والسياق يحمل الكثير من العبرة والموعظة الحسنة، والمسلمون هم الأجدر بها وأهلُها.

واختلف المفسرون في هذا الذي أُوتي الآياتِ، فانسلخ منها، فقيل: هو بلعم بن باعوراء، وقيل هو أمية بن الصلت الثقفي، وقيل: أبو عامر بن صيفي، وقيل غير ذلك، ولو كان الاسم مهماً لذكره السياق، لكن العبرة بالمضامين، وبالدروس المستقاة من القصة، لا بأسماء الشخوص.

ومعنى ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾: أيْ علَّمه الله بعضاً من كتبه المنزلة، ونسب الله إتيان الآيات لنفسه؛ لأن ذلك فضل من الله ونعمة منَّ بها عليه.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾: أيْ خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يُسلخ عن اللحم، وانسلخ منها: يعني أنه هو الذي انسلخ عن الآيات، فهو الزائد، والآيات

هن الأصل، وهن الثابتات الباقيات الخالدات، ولفظ «انسلخ» يحمل معنى الانفصال والفراق الأبديِّ الذي لا عودةَ بعده ولا رجعة، كما يحمل أيضاً معنى الصعوبة، والألم، والمشقة عند الفراق..، ولا أحسب كلمة أخرى في اللغة العربية يمكن أن تفي بالغرض، وتحلُّ محلَّ هذه الكلمة، وتقوم مقامها، فتصف المشهد بكل هذه الدقة، فالعالِم بآيات الله، العارف بها حقَّ المعرفة، لا يمكن أن يتركها لتغير قناعاته الفكرية؛ كأن يظهر له زيفها وبطلانها، أو يهتدي لما هو أقوم منها وأصوب، وإنما يتركها اتِّباعاً للهوى والشهوات، وعندها يكون الفراق إلى غير رجعة، تماماً كما تسلخ الشاة من جلدها، فلا يمكن أن يرجع إليها.

ولا شكَّ أن الانسلاخ يصحبه ألمٌ وتعبٌ ومشقة، والذي ينسلخ من آيات الله بعد أن عاش معها، وفي ظلِّها، وتمكنت من نفسه، لا بدَّ أن يترك أثراً بالغاً في نفسه، حتى وإن أخفى ذلك، وحاول إظهار عكسه، فهو في قرارة نفسه، يعلم أنه ينافق وغير صادق، وأنه بانسلاخه من آيات الله جلب لنفسه القلق والأرق، واضطراب النفس.

﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: بعد أن انسلخ من آيات الله، فقد الحماية والحصانة التي كانت تمنعه من الشيطان، والتي يحفظ الله بها عباده المؤمنين المخلصين ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وانظر إلى هذا الترابط اللفظي والمعنوي بين قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾، فالغواية في كلتا الآيتين تأتي نتيجةً لاتِّباع الشيطان.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾: أشكل على كثير من المفسرين ربط المشيئة هنا بقوله ﴿لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾، والاستدراك بالحرف «**لكن**»، والذي يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي

قبلها، أو ينفي ما أثبت، وأحسب أن ذكر المشيئة في هذا الموضع جاء ضمن إشارة تنبيهية موجزة، مفادها أن هذا الذي انسلخ من آيات الله كان أمام طريقين: أن يتبع آياتِ الله، ويعمل بها، فيرفع الله قدره ومنزلته بفضلها وبركتها، أو يتبع هواه، فيهوي به إلى الحضيض، ولو شاء الله له الهداية لتمسك بآيات الله، وعمل بمقتضاها، فرفعه الله، لكنه اختار الطريق الآخر، وشرى النفيس بالرخيص، والثمين بالخسيس.

واستدراك المشيئة بإخلاده إلى الأرض، إشارة أخرى ـ غير مباشرة ـ إلى أن الله يريد للإنسان الخير والعلو والرفعة ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، لكن الإنسان يبقى مخيراً؛ فإنْ أراد الخير، وسعى له؛ رفعه الله به، وإنْ أخلد إلى الأرض، واتبع هواه؛ فهو وما أراد.

ولفظ ﴿أَخْلَدَ﴾ يأتي هنا في مقابل ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾، وعلى نقيض معناه، وأصل الإخلاد اللزوم، والدوام والبقاء، ومن دقة استخدام هذا اللفظ الخاص ـ في هذا الموضع الخاص ـ أنه يصوِّر إليك حال المنسلخ من آيات الله، ملتصقاً بالأرض، منجذباً إليها، لائذاً بها، في إشارة إلى انحطاط حاله، وخسة نفسه.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: أي اتَّبع ما تهواه نفسه، وترغبه وتشتهيه، واختار الدنيا، وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علَّمه الله، فلم يَعُدْ هو الحَكَمَ والضابطَ لأفعاله وتصرفاته، ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

يقول ابن القيم في تعليقه على هذه الآية: «شَبَّه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه ـ العلم الذي منعه غيره ـ، فترك العمل به، واتَّبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو مِن أخبث الحيوانات، وأوضعِها قدراً، وأخسِّها نفساً، وهِمَّتُهُ لا تتعدى بطنه، وهو أشدُّها شرهاً وحرصاً، ومِن حرصه أنَّه لا يمشي إلا وخَطْمُهُ في الأرض، يتشمَّم ويستروح حرصاً وشرهاً،

ولا يزال يَشُمُّ دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميتَ إليه بحجرٍ رجع إليه؛ ليَعَضَّه من فرط نهمته، وهو مِن أمهن الحيوانات وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، وفي تشبيه مَن آثر الدنيا وعاجلها على الله والدارِ الآخرةِ ـ مع وفور علمه ـ بالكلب في حال لهثه سِرٌّ بديعٌ، وهو أنَّ هذا الذي حاله ما ذكره الله مِن انسلاخه مِن آياته، واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهفه على الدنيا؛ لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولـهفه نظير لهف الكلب الدائم في حالَيْ إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى»[1].

ومع تقديري لهذا التحليل الرائع الشامل لشيخنا ابن القيم، إلا أنني أذهب إلى أبعدَ من حمل معنى اللهث على اللهف، فاللهفة تعني شدة الرغبة، أما اللهث فهو عند الإنسان، وسائر الحيوانات، علامة على التعب والإجهاد، ودلالة على العطش.

والكلب هو الوحيد الذي شذَّ عن هذه القاعدة، فهو يلهث في جميع الأحوال والأوقات ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾، ووجه الشبه هنا بين الكلب وبين المنسلخ من آيات الله، أن المنسلخ من آيات الله، المخلد إلى الأرض، المتبع هواه، يفقد عناصر القوة والتحمل، ودعائم الصبر والجلد، فهو قد انسلخ من آيات الله إشفاقاً على نفسه من المشقة والمحن والابتلاءات التي ستجلبها عليه، واتِّباعاً لهوى نفسه وشهواتها وملذاتها، التي يضبطها ويقيدها الإيمان بآيات الله، والعمل بمقتضاها، لكنه بتخلِّيه عن آيات الله فَقَدَ الحصانة والحماية، والصلابة والقوة، والجلد، فأصبح ضعيفاً واهناً، لا يقدر على شيءٍ، ولا يصلح لشيء، فهو في حالة ضعفه هذه، واستخذائه أمام القوة الطاغية، وتزلُّفِهِ للحكام والطغاة، ومداهنتهم، وشرعنة باطلهم وظلمهم،

(١) ابن القيم، محمد، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١/ ١٦١ - ١٦٢، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

وفسقهم، مع خسته وسوء طويته، أشبهُ ما يكون بالكلب..، فالطباع طباع الكلب، والحال حال الضعف والتخاذل، والانهزامية والسلبية في جميع الأوقات، حال الكلب دائم اللهث.

وعندك ـ في زماننا هذا ـ من علماء السلاطين «العلماء الكلابيين» الكثير من هذه النماذج، الذين تُشبه طباعُهم وحالهم طباعَ الكلاب وحالَها؛ بل هم أضل سبيلا؛ فإن من الكلاب من يملك وفاءً، وليتَ «إمام السلاطين الأعظم» يملك مِعْشَارَه! ونقول ما قالته العرب قديماً: «لا تقتنِ من كلب سوءٍ جَرْواً»، وبالقياس فلا تأخذ من عالم سوءٍ فتيا أو رأياً.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: أيْ ذلك المثل والتشبيه والحال المخزي المشين هو حال القوم الذين كذَّبوا بآيات الله، بعد أن عرفوها، وعَلِموا أنها الحقُّ من رِّبهم، فالمثل لا يقتصر على شخص بعينه، وإنما يشمل كلَّ مكذِّبٍ جاحدٍ بآيات الله منسلخٍ عنها، بعد أن علمها، وأيقن بها.

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أيْ اقْصُصْ عليهم القصص؛ لعلهم يتدبرون، ويعقلون، ويتفكرون، فيدركوا خطورة الأمر وحقيقته، فيفطنوا ويربؤوا بأنفسهم عن هذا الحال والمصير.

والله أعلم.

❊ ❊ ❊

المبحث الخامس

وقفات تأملية: مع مواضعَ من سورة الأنبياء

في هذا المبحث خمس وقفات؛ فاقرؤوها باسم ربِّكم الذي خلق:

أولاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

نحن أمام آية من أعظم الآيات إعجازاً وبلاغةً، ودقةً في التعبير!

الخطاب فيها موجه للكافرين، ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّر، والرؤية هي القلبية: أي أَعَمُوا فلم يتفكروا، أو أجهلوا فلم يعلموا[1]، وهنا فقرتان:

أ ـ المعلومات التي فيها محاجَّة للكافرين: وهي ثلاث:

١ـ السماوات والأرض كانتا رتقاً: يعني أنهما كانتا أجساماً ملتئمة، وانظر إلى دقة التعبير باستخدام لفظ رتقاً؛ فإنه يفهم منه أنها كانت كتلاً متفاوتة الخصائص والميزات، وليس كتلة واحدة، كاملة التجانس.

٢ـ فُصِلت السماوات والأرض عن بعضهما بعضاً ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، ولفظ ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ ـ أيضاً ـ يحمل من البلاغة والدقة في التعبير ما يشير إلى أن الفصل كان كاملاً وقاطعاً، بإخراج كلِّ كتلةٍ بكامل مزاياها وخصائصها عن الأخرى.

---

(١) فتح القدير، ٣/ ٥٥٤.

٣ـ لا حياة دون ماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾

ب ـ الطلب بعد الحجّة البيّنة:

الدعوة إلى الإيمان ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾؟!

والهمزة في ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ للإنكار عليهم(١)، والتقدير: أَعَمُوا فلا يؤمنون.

إنك ـ وأنت تقرأ هذه الآية ـ تشعر كأنما أُنزلتِ اليومَ، وليس قبل ما يزيد على ألف وأربع مئة عام! فالكافرون ـ في العصر الحديث ـ هم الذين وضعوا نظرية «نشوء الكون» بعد دراساتٍ وأبحاثٍ وتجاربَ مستفيضة، والتي تقول: «بالانفجار الكبير» الذي انفصلت على إثره الأرض والكواكب والنجوم بعضِها عن بعض، وهم الذين أثبتت تجاربهم وأبحاثهم أن الحياة متعلقة بالماء، وأن لا حياة دون ماء.

وأن يجتمع الأمران: «**نشأة الكون**»، و«**ارتباط الحياة بالماء**»، في آية واحدة تخاطب الكافرين، وتنكر عليهم جحودهم وكفرهم، بعد أن وصلوا إلى هذه المعلومات، وأثبتوها هم بأنفسهم، فهذا إعجازٌ بَيِّنٌ واضح، لا يماري فيه إلا من خُتم على قلبه وسمعه، وجُعل على بصره غشاوة.

وأنت اليوم ترى علماء «الكافرين» يغزون الفضاء يبحثون في الكواكب البعيدة المتناثرة عن وجود ماء فيها؛ ليستدلوا به على إمكانية وجود حياة؛ من عدمها!

بعد هذا كلِّه لا أجد تعقيباً أبلغَ ولا أفصحَ، ولا أدقَّ من تعقيب الله في ختام هذه الآية الكريمة ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾؟!

ثانياً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

إذا ما قارنَّا بين هذه الآية الكريمة والآية المشابهة لها من سورة الصافات ﴿فَأَرَادُوا۟

(١) فتح القدير. ٣/ ٥٥٤.

بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٨]، نجد هنالك اختلافين بينهما، وهما:

١ـ ابتدأت الآية من سورة الأنبياء بالواو، فيما ابتدأت الآية من سورة الصافات بالفاء.

٢ـ استخدام لفظ ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ في الآية من سورة الأنبياء، و﴿ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ في سورة الصافات.

وبالتدقيق في السياق الذي وردت فيه الآيتان، يظهر لنا سِرُّ هذا الاختلاف، فسورة الصافات تمتاز بقصر آياتها، وعرضها السريع للأحداث، فتناسب أن تبدأ الآية بالفاء التي تفيد الترتيب وسرعة التعاقب، بينما سورة الأنبياء تمتاز بأن آياتها متوسطة الطول، وعرض الأحداث فيها معتدل، ولا يمكننا أن نعتبره سريعاً، لذلك تناسب أن تبدأ الآية بحرف الواو.

وفي سورة الصافات سَبَقَ قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٩٧] قولَه سبحانه: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾، فالسياق هنا يتحدث عن بناء بنيان و«إلقاء»، والإلقاء يكون من أعلى إلى أسفل، بمعنى أنهم أرادوا أن يلقوه من أعلى البنيان؛ ليستقر في قعر الجحيم، فردَّ الله كيدهم إلى نحورهم، فكانوا هم ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾، فتناسب لفظ ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ مع السياق أبلغ تناسبٍ وأدقَّه ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾.

أما في سورة الأنبياء فقد سبق قوله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨] قوله: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾، ويفهم من السياق أن نصرة آلهتهم تعني خسارة إبراهيم، فردَّ الله كيدهم إلى نحورهم، ونصر إبراهيم فانتصر، ونصروا هم آلهتهم فخسروا.. فتناسب لفظ ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ جداً، وقد عَبَّر أبلغ تعبير عن السياق ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾[1].

(١) لم يعرف بالضبط ما هي العقوبة التي نزلت بقوم إبراهيم وأبيه آزر، ويبدو أن قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾=

ثالثاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣- ٨٤].

نلاحظ أن الاستجابة لأيوبَ عليه السلام كانت مباشرة بعد تعريضه برفع الضُّرِّ دون تصريح، وكذلك كَشْفُ الضُّرِّ عنه كان مباشراً، وقد دلَّ على ذلك استخدام حرف الفاء: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ﴾، ونلاحظ أن أيوب عليه السلام قد دعا ربه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، ولما كان أيوب من المحسنين، وقد أخبرنا الله أن رحمته قريبٌ من المحسنين ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف:٥٦]، جاء التعقيب أيضاً منسجماً ومتناسقاً، ومتناسباً مع السياق، بقوله ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، فنسب الله عز وجل الرحمة لذاته «**عندنا**»..، وانظر كيف ختم التعقيب في قصة أيوب بقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾؛ ذلك أن أيوب عليه السلام عُرف بكثرة عبادته، وصبره على البلاء والسقم، وهو عبادة؛ فقد جاء في الحديث «**ما يصيبُ المؤمنَ من وَصَبٍ ولا نصبٍ، ولا سقمٍ ولا حزنٍ، حتى الهمُّ يهمه؛ إلا كفّر به من سيئاته**»(١).

وإذا قارنا قصة أيوب عليه السلام بقصة يونس، وجدنا بعض الفوارق التي تعبر عن دقة التعبير القرآني، وبلاغته:

ففي قصة يونس استخدم حرف الفاء في إشارة لسرعة الاستجابة ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ تماما كما في قصة أيوب؛ لكنْ في نجاة يونس استخدم حرف الواو بدل الفاء ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، والسرُّ في ذلك أن يونس كان في بطن الحوت؛ لمَّا نادى في

= أن الله عز وجل قد سلط عليهم من البشر من اضطهدهم، وتمكن من رقابهم، فكانوا تحتهم من الأسفلين الصاغرين.

(١) صحيح مسلم، ٤/ ١٩٩٢.

الظلمات ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فاحتاج الأمر بعد الاستجابة المباشرة لدعائه بعض الوقت؛ كي ينقلَه الحوت من وسط البحر إلى الشاطئ، ثم يقذفَه هناك..، فناسب في قصة يونس استخدام الواو في قوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾، والفاء في قصة أيوب ﴿فَكَشَفۡنَا﴾، وليس صحيحاً أن نجاة يونس تأخرت ـ كما يزعم بعضهم ـ ؛ لأنه «أبق»، و﴿ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾، ويؤكد هذا استخدام الواو أيضاً في قصة زكريا ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ إذْ إن الأمر قد احتاج إلى وقت حتى تغشَّى زوجته، و حملت، وأنجبت.. والله أعلم.

وفي قصة يونس نجد التعقيب قد جاء بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فلفظ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هو الأنسب للسياق، ذلك أن يونس دعا ربَّه بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهو دعاء إيمان وإنابة إلى الله، فما واجهه يونس في ظلمات بطن الحوت، وظلمات البحر، هي حالة يتجلى فيها الإيمان الصادق، والدعاء الخالص لله وحده، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن لغطاً أُثير حول درجة إيمان سيدنا يونس عليه السلام بفهمهم المغلوط للفعلين «**أبق**»، و﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، فجاء التعقيب قاطعاً لهذه التقولات بردٍّ غيرِ مباشر عليها: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، مثبتاً إيمان يونس ويقينه عليه السلام.

رابعاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

نلاحظ أنه قد استخدم لفظ ﴿فِيهَا﴾ للدلالة على مكان النفخ، فيما استخدم لفظ «فيه» في إشارة للفرج، كمكان للنفخ في سورة التحريم ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، فما سِرُّ هذا الاختلاف في التعبيرين؟

لو دقَّقنا النظر في الآية التي في سورة الأنبياء لوجدنا أن السياق جاء بألفاظٍ عامة، وابتعد عن التخصيص والتفصيل، فقال: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾، ولم يذكر اسمها، فتناسب مع طبيعة هذا السياق لفظ ﴿فِيهَا﴾؛ لأنه لفظ عام، فيما نجد السياق في سورة التحريم قد جاء بصيغة التخصيص والتفصيل، فذكر اسمها، وسَرَدَ تفاصيلَ عنها، فتناسب مع طبيعة هذا السياق استخدام لفظ «فيه» المخصص والمحدد». والله أعلم.

خامساً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۞ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٢- ٩٣].

وفي مقابل هاتين الآيتين توجد آيتان في سورة المؤمنون تتشابهان مع هاتين الآيتين، مع بعض الاختلاف الذي استدعته ضرورة السياق، وطبيعته، وسأعرض في هذا السياق هذه الاختلافاتِ مع أسرارها، وبلاغة التعبير القرآني ودقته فيها.

الآية الأولى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

وفيها فقرتان:

أ ـ نلاحظ أن الآية من سورة الأنبياء قد ابتدأت بلفظ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾ دون ورود واو العطف، تلك التي في سورة المؤمنون ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، والسِّرُّ في إسقاطها في «الأنبياء»، وإثباتها في «المؤمنون» يعود لطبيعة السياق، وجهة الخطاب.

فقد سبق الآيةَ من سورة الأنبياء آياتٌ عدةٌ، كلها بدأت بواو العطف: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾، ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾، ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾، ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ﴾، ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾، ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ

فِي ٱلْحَرْثِ﴾،﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾،﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً..﴾، ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ﴾،﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾، ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ..﴾، ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء:٧٢- ٩١]، فلزم أن تأتي هذه الآية ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ دون واو العطف؛ لأنها مُجْمِلَةٌ ومُلَخِّصَةٌ لكل قصص الأنبياء التي سبقتها ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ بمعنى أن جميع أمة الأنبياء الذين تَمَّ ذكرهم هم أمة واحدة.

أما في سورة المؤمنون فالسياق مختلف تماماً، والآية ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ مرتبطة بما سبقها بما خوطب به الرسل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، أي أن الخطاب هنا للرسل، والآية معطوفة على ما قبلها، فلزم إثبات واو العطف، فيما الخطاب في الآية من سورة الأنبياء للناس، وليس للأنبياء، ويؤكد هذا الرأي ما ذهب إليه كثير من المفسرين، فقد جاء في فتح القدير للشوكاني في تفسير قوله ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء، والمعنى أن هذه ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ملة واحدة، وشريعة متحدة يجمعها أصلٌ، هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه، وأنزل فيه كتاب[1].

ويعلق الإمام ابن القيم على موضوع «واو العطف» فيقول: «والعطف: تارة يجب إسقاطه، وتارة يجب إثباته، وتارة يخيَّر بين إسقاطه وإثباته، أما الذي يجب إسقاطه؛ فهو إذا ما كان إثباته يُخِلُّ بالمعنى؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤- ١٥] فهذا إخبار من الله تعالى، وفي الحقيقة هو جواب سؤال مقدر؛ لأنه تعالى لما أخبر عنهم بأنهم قالوا: كيت وكيت؛ تشوّف

(١) فتح القدير، ٣/ ٦٦١.

السامعون إلى العلم بمصير أمرهم، فكأنه قيل: فماذا فعل الله بهم؟ فقال: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، وأما ما يجب إثبات العطف فيه فقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]؛ فإن كل واحدة من الجملتين خبر من الله تعالى.

ومثله في القرآن العظيم كثير.

أما الذي يخيَّر بين إسقاطه وإثباته فهو إذا كان إسقاطه لا يُخِلُّ بالمعنى، وإثباته لا يفيد معنى زائداً»[1].

ب ـ أما الاختلاف الثاني بين الآيتين من سورة الأنبياء والمؤمنون، فهو: أن الأُولى ختمت بلفظ ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾، فيما خُتمت الثانية بلفظ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، وسِرُّ ذلك أن سورة الأنبياء ركَّزت بشكل واضح على مفهوم «العبادة»، وأثرها ودورها، ونجد ذلك في عدة مواضع من السورة، منها: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣- ٨٤]، ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]. فكان من دقة القرآن الكريم وبلاغته أن جاءت هذه الآية المحورية في السورة مركِّزة على مفهوم

(١) ابن القيم، محمد، الفوائد المشوق، ص١٨٧. مكتبة المتنبي ـ القاهرة، وقيل بل مؤلفه هو أبو عبد الله جمال الدين محمد بن سليمان البلخي المقدسي الحنفي الشهير بابن النقيب (ت: ٦٩٨هـ).

العبادة بشكل منسجم ومتناسق، ويتناسب مع سياق السورة بشكل عام، إضافة إلى أن الخطاب في هذه الآية موجَّهٌ للناس، وليس للأنبياء ـ كما أسلفنا ـ.

أما سورة المؤمنون؛ فإن التركيز فيها على الإيمان، والدعوة إلى تقوى الله، هو السمة الغالبة عليها، ونجد ذلك في مواضعَ كثيرةٍ من السورة، منها: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، ﴿قُل مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦- ٨٧]، وبالتالي لفظ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، هو الذي يناسب التعقيب في هذه الآية المميزة ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾.

الآية الثانية: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾.

إذا نظرنا إلى الآية التالية من سورة الأنبياء ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣]، نجد أنها تختلف بصورة جوهرية مع نظيرتها من سورة المؤمنون: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، فنلاحظ أن الآية التي في سورة الأنبياء ابتدأت بالواو، بينما ابتدأت الآية الأخرى بالفاء، واستخدام الفاء فيه إشارة إلى سرعة اختلافهم وتفرقهم، الأمر الذي لا تفيده الواو، وهذا يجعلنا نعتقد أن الذين أشارت إليهم الآية من سورة الأنبياء، غير الذين أشارت إليهم الآية من سورة المؤمنون.

ويؤكد ذلك اختلاف الصِّيغ بين الآيتين، فالحديث في الآية التي في سورة الأنبياء يدور حول اختلاف الناس في الديانات، ولا يعني ذلك أن هذا الاختلاف كلُّه ضلال، فمنهم الصالحون، ومنهم دون ذلك، من هنا جاء التعبير عن المختلفين المتفرقين في هذه الآية محدداً ودقيقاً ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣]، أيِ الصالحون وغيرُ

الصالحين، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، تأكيداً على ذلك.

فيما نجد أن محور الحديث في الآية التي في سورة المؤمنون مغاير تماماً، فهو يتحدث عن اختلاف هذه الأقوام على أنبيائها، الاختلاف المذموم، واستخدام «الفاء» فيه إشارة لسرعة هذا الاختلاف ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾، وكذلك إضافة لفظ ﴿زُبُرًا﴾، والذي يعني «فِرَقاً»، والتعقيب بقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، كلُّه يشير إلى أن الحديث يدور حول الفرق والفئات الضالة التي اختلفت على أنبيائها، وانحرفت عن طريقهم ومنهجهم، وليس اختلافاً بين مؤمنين وكافرين، وصالحين وطالحين، ومتقين وعصاة، كما هو الحال في الآية من سورة الأنبياء، فانظر إلى دقة المعنى، وروعة المبنى وجماله في كلِّ آيةٍ قرآنية.

والله أعلم.

❊ ❊ ❊

المبحث السادس
وقفات تأملية: مع آيات الزروع والأشجار
في مواضعَ مختلفةٍ من القرآن الكريم

في هذا المبحث سبع وقفات، فانظروها جميعاً، ولا تزهدوا فيها، فتقرؤوا ما تيسَّر منها:

أولاً: وقفة مع آياتٍ من سورة الأنعام:

١ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

يفتتح الله جلَّ وعلا بهذه الآية ذكر بعضٍ من عجائب صنعه، وعظيم قدرته، مما هو من فَضله على الناس، ويبدأ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، والفَلْق معناه: الشقُّ، وهو في ﴿ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ من أصل الخلقة، فإذا نظرت إلى حبة قمح أو شعير، رأيت هذا الشَّقَّ بوضوح، ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ لفظ يطلق على كلِّ ما فيه عَجَمٌ؛ كالتمر، والمشمش، والخوخ، وقد اكتشف علماء الأحياء حديثاً أن في هذا الشق سِرَّ الإنبات، فانظر إلى إعجاز التعبير القرآني ودقته في هذه الآية التي تبدأ بالحديث عن سرِّ الإنبات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، ثم تتحدث عن الإعجاز في خلق النبات مُخْتَصِرةً دورة حياة النبات بهذه الكلمات ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

وقد كثرت الأقوال والتأويلات في معنى الحي والميت؛ لكنّا نرجح هنا أن

المقصود بها هو النبات؛ لارتباطها بما قبلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، فالحيُّ الذي يخرج من الميت هو النبتة، أو الشجرة الخضراء المورقة التي تنمو وتكبر، كما ينمو ويكبر الجنين، والتي تخرج في الأصل من حبةٍ أو نواةٍ ميتة، ثم تخرج هذه الشجرة أو النبتة حباتٍ ميتاتٍ تماماً؛ كالتي خرجت منها، فيما يمثل دورة حياة النبات، وانظر إلى دقة التعبير القرآني في استخدام لفظ ﴿يُخۡرِجُ﴾ الفعل الدال على الحدوث في إخراج النبتة من البذرة، و﴿وَمُخۡرِجُ﴾ الصفة في استخراج البذور من النبتة، ومعلوم أن الصفة تدل على الثبوت والتلازم، فيما الفعل على الحدوث، والاستمرارية؛ كونه مضارعاً.

إنَّ النبتة عندما تخرج من البذرة، أو النواة، تنمو ببطء، ويستمر نموها فترةً زمنيةً معينة، أما البذرة «الميتة»، عندما يتمُّ إخراجها من النبتة، فيكون ذلك في وقتٍ واحد، ليس فيه تدرج أو استمرارية، من هنا يتضح لنا السرُّ وراء استخدام لفظ ﴿يُخۡرِجُ﴾ في ﴿ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ و لفظ ﴿وَمُخۡرِجُ﴾ في ﴿ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾. والله أعلم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾، ذلكم الله الخالق القادر المحيي المميت، فكيف تُصرفون عن عبادته والإيمان به؟!

٢ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ويستمر السياق في تعداد عجائب صنع الله، ونعمه على الناس، فيذكِّرهم بإنزال المطر، ويعبِّر عنه بلفظ «ماء»، ويربط بين «الماء» و﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أيْ أنَّ كلَّ صنف من أصناف النبات لا يمكن أن يخرج وينبت إلا «بالماء». ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا﴾، وقد علق الشيخ الشعراوي على هذه الآية بقوله: «**خَضِراً**»: فيها وصف زائد

قليلاً عن أخضر؛ لأن أخضر يعبر عن اللون فقط، واللون متعلق بالعين. لكن خَضِراً يعطي اللون، ويعطي الغضاضة، ونعرفها بالجس»[١].

وانظر إلى دقة التعبير القرآني في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ فلفظ به يعود على الماء، بمعنى أن الإنبات يقوم ويعتمد في الأساس على الماء، أما لفظ ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾، فالضمير يعود على النبات ـ على الأرجح ـ بمعنى أن مادة الخَضِر تتكون في النبات.

﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾، أي حباً مرصوصاً متساناً، مثل سنابل القمح. ويفهم من النص أن دور «الخَضِر» في إخراج الحب مِثْلُ دور الماء في إنبات النبات، أي أنه العنصر الأساسي.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾، أي عناقيد متدلية.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، نجد أن ترتيب الأشجار في هذه الآية جاء عى النحو التالي: النخل، الأعناب، الزيتون، والرّمان، وأعتقد أن الترتيب قد جاء بناء على تراكمية الثمار ومنظرها، فقد تقدم النخل، وأُتبع بوصف عناقيده المتدلية ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾، وتبع ذلك الأعناب، فهي تأتي في المرتبة الثانية من جهة عناقيدها.. يتبعها الزيتون، ثم الرّمان.

ويساند ما ذهبتُ إليه أن الآية الكريمة خُتمت بقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾، فالترتيب إذن مرتبط بتراكمية الثمر، والنظر، والنضج.. وفي النظر إلى الأشجار وثمارها متعة، لا ينبغي التقليل منها، تشير إليها الآية الكريمة.

٣ـ وقد يسأل سائل: لماذا ورد في هذه الآية قوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾،

---

(١) الشعراوي، محمد تفسير الشعراوي، ٦/ ٣٨٢٣، إصدار أخبار اليوم/ قطاع الثقافة.

فيما ورد لاحقاً في ذات السورة قوله: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]؟

إن الاشتباه يعني: الالتباس، والإشكال، وهو مغاير في المعنى لكلمة «متشابه» ونلاحظ أن الآية الأولى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ تعني أن بعضاً من أشجار «الزيتون»، وبعضاً من أشجار «الرمان»، يلتبس على الناظر التفريق بينها لشدة تشابهها، ولأن سياق هذه الآية مرتبط بشكلٍ كبير بالمنظر والمشاهدة، والالتباس والاشتباه مجالُه البصر، استخدم لفظ ﴿مُشْتَبِهًا﴾ في هذه الآية التي خُتمت بقوله تعالى ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾، بمعنى انظروا لتعرفوا درجة الاشتباه، ولتزيلوا هذا الالتباس بالنظر الدقيق للثمر والينع.. أي النضج.

أما «غير المتشابه» فهي الأنواع التي لا يقع بينها أيُّ تشابه؛ لتباينها واختلافها الواضح..

أما الآية الأخرى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾؛ فإن سياقها يركِّز على الأكل، والتشابه وغير التشابه هنا هو في الطعم، وانظر إلى دقة التعبير القرآني؛ حيث جاء في ختام الآية قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

إن اللفتة التي أراها في هذه الآية هي أن الإنسان إذا ما وقعت عيناه على بستان من الأشجار ـ المعروشة أو غير المعروشة ـ المنظمة المعتنى بها، فإنه بلا شكٍّ سيفتن بهذه الروعة، وهذا الجمال الخلاب.

إنَّ المؤمن يذكره ذلك بعظيم قدرة الله، و بديع صنعه، فيقول:» ما شاء الله

لا قوة إلا بالله»، أما غير المؤمن فتستحوذ عليه ما صنعته يد البشر من لمسات فنية، وتنظيم و ترتيب و تنسيه أن يرد أصل الخلق والنشأة والإبداع الحقيقي لله وحده، فجاءت هذه الآية بهذه الألفاظ المحددة الدقيقة «**أنشأ**» «**جنات معروشات**» «**وغير معروشات**»؛ لتذكر الناس أن الخالق المبدع لهذا الكون بكل ما فيه من جمال وروعة، ودقة وعظمة، هو الله وحده.

﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾، قال: ﴿مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾، ولم يقل أكلها؛ لأن المقصود اختلاف الأكل «الطَّعم والجودة» في ذات النوع، وليس بين النوعين، بمعنى أن ثمار النخيل يختلف بعضها عن بعض في الأُكُل، وكذلك الزرع.

﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، وقد سبق أن تحدثت عن هذا المقطع من الآية.

وبالمجمل؛ فإن هذه الآية تلقي الضوء ـ وهي تظهر بديع قدرة الله ـ على جانب الاختلاف والتباين فيما يتعلق بالأشجار والزرع: ﴿جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾.

﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ﴾: النخل يمثل عظيم الشجر، والزرع يمثل صغير النبت: اختلاف في الأكل.

﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾: متشابه، وغير متشابه.

وفي ختام الآية يوضح الله للناس الغاية من إنشاء تلك الزروع والثمار بقوله: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

ثانياً: وقفة مع آيةٍ من سورة الرعد: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

﴿قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾: أراضٍ متجاورة مختلفة الصفات «منها الطيب الخصب، ومنها السبخ النكد، ومنها المقفر الجدب، ومنها الصخر الصلد، وكل واحد من هذه وتلك أنواع وألوان ودرجات، ومنها العامر والغامر، ومنها المزروع الحي والمهمل الميت، ومنها الريان والعطشان، ومنها ومنها..، وهي كلها في الأرض متجاورات»[(١)].

﴿وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾

الصنوان: جمع صنو، وهي الشجرة لها رأسان، وأصلها واحد.

يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان.

قال ابن الأعرابي: الصنو المثل[(٢)].

﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾، ومع ذلك فإن الثمار مختلفة الطعم.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِ﴾: «من منا لم يذق الطعوم المختلفات في نَبْتِ البُقْعَةِ الواحدة؟! وكم منا الْتفت هذه اللفتة التي وجَّه القرآن إليها العقول والقلوب؟! إنه بمثل هذا يبقى القرآن جديداً أبداً؛ لأنه يجدِّد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس، وهي لا تنفذ ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود»[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٠٤٦.

(٢) فتح القدير، ٣/ ٩٠.

(٣) في ظلال القرآن،٤/ ٢٠٤٧.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ونحن هنا أمام آية، تبرز ـ هي الأخرى ـ قدرة الله وبديع صنعه من خلال الاختلاف، والتباين والتنوع.. لكن هذه المرة في الشيء الواحد: الأرض متقاربة متجاورة، ورغم ذلك فهي مختلفة، ومتباينة الصفات.. «والأعناب والزرع والنخيل»، كل صنف منه أنواع مختلفة متعددة.. الأعناب أكثرها تنوعاً، لذلك جاء ترتيبها أولاً، فمنها الأبيض والأصفر والأحمر والأسود، والكبير والمتوسط والصغير، والسكري والحلو والحامض..، والزرع ثانياً، بتنوع حبوبه وثماره، واختلاف ألوانه، وشكل نباته، ثم النخيل الصنوان وغير الصنوان، فسبحان الله الذي أبدع وأحسن كلَّ شيءٍ خَلَقَه، وقضى الاختلاف سنة على جميع مخلوقاته.

ثالثاً: وقفة مع آية من سورة النحل: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].

سياق هذه الآية جاء في إطار تعداد نعم الله على الناس، بتوفير احتياجاتهم، وتيسير حياتهم، وقد سبقها حديث عن الأنعام: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، فالحديث إذن عن المنافع، والحاجات، والضرورات، وبالتالي فإن ترتيب الزروع والأشجار في هذه الآية جاء بناء على ذلك، فالزرع هو الأكثر أهميةً وضرورةً لحياة الناس والأنعام، ودول العالم المتقدم تقدِّر هذا الأمر جيداً، فتعتبر توفير احتياجاتها من القمح ـ مثلاً ـ من عناصر أمنها القومي، ومن هنا نجد أن أمريكا وروسيا تُعَدُّ من الدول الأولى المصدرة للقمح على مستوى العالم، فيما تعتبر معظم الدول العربية والإسلامية مستوردةً له! ويأتي الزيتون في المرتبة الثانية بعد الزرع من حيث الأهمية، فقد ذُكر أربعَ عشرةَ مرةً في القرآن الكريم، وَزَيْتُهُ من أغلى الزيوت وأنفعِها، وأرقاها، فالنخيل والأعناب تباعاً، ومعلوم أن الفوائد التي تُجْنَى من النخيل أكثر من التي تجنى من العنب، لكن العنب أيضاً يتميز على سائر الثمرات التي جمعت في الآية

بقولـه: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ حيـث إن هذه الثمرات يمكن الاسـتعاضة عن إحداها بالأخرى، وفي هذه الآية إجابة على السؤال الجدلي الذي ما انفكَّ الناس يسألونه: ماذا نزرع؟

فحقاً: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وانظر إلى دقة التعقيب ـ أيضاً ـ؛ حيث استخدمت صيغة المفرد في لفظ ﴿لَآيَةً﴾؛ لأن الحديث يدور عن موضوعٍ واحد، فيما اسـتخدمت صيغة الجمع في الآية التالية في قولـه ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحـل: ١٢]؛ ذلـك أنها اشـتملت على عدة آيـات من عجائب خلق الله: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم..، وفيما استخدم في آية الزرع لفظ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأن موضوع الآية يحتاج للتدقيق وإعمال العقل، واستخدم في الآية التالية لفظ ﴿يَعْقِلُونَ﴾؛ لأن الآيات فيها بينة، ولا يحتاج إلا إلى تحكيم العقل، بدل العناد، واتِّباع الهوى.

رابعاً: وقفة مع آياتٍ من سورة الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۞ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۞ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٢- ٣٤].

في هذه الآيات إشارة واضحة لما أصبح يعرف اليوم في علم الاقتصاد بالزراعة الكثيفة، والتي تعني استخدام مقادير كبيرة من العمل، ورأس المال، بالنسبة لمساحة الأرض، فهاتان الجنتان من الأعناب حُفَّتا بالنخيل، الذي يصد الرياح، ويخفف من أثرها على الأعناب، إضافة للاستفادة من ثمره، ومنظره الخلاب..، ثم اسْتُغِلَّتِ الأرضُ بين الأعناب بالزرع، ولأن حياة الشجر والزرع لا تقوم إلا بالماء، أجرى الله بين الجنتين جدولاً ﴿نَهَرًا﴾، فاستحقت الجنتان بذلك وصف الله لهما ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾.

ونلحظ في هذه الآيات أن الله عز وجل قد نسب إلى نفسه إنشاء الجنتين من الأعناب، وحَفَّها بالنخيل، وجَعْلَ الزرع بينهما، وتفجير النهر، وفي هذا إشارة سبق أن نَوَّهْتُ لها، وهي تأكيد أن ما في هذا الكون من نعم مردُّه إلى الله، فهو الخالق والمالك والرازق.

وما عملُ الإنسان وجهدُه وكَدُّه إلا في ملك الله، ولا نجاحَ ولا فلاحَ له إلا بتوفيق الله وإرادته!

وهناك لفتة نستنبطها من مفهوم النصِّ، فيها تأنيب وتقريع للإنسان الجشع الذي لا يؤدي حقَّ المال، ويطمع في الاستحواذ على نصيب المساكين، فقد وصف الجنتين بقوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾.

فيما وصف صاحب الجنتين بقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، وإنما وصف الله صاحب الجنتين بالظلم ﴿لِّنَفْسِهِۦ﴾؛ لأنه عندما طمع في حقِّ غيره ظلم نفسه، بما جلبه عليها من غضب الله، وسخطه، ونقمته، وإهلاك ماله.

خامساً: وقفة مع آياتٍ من سورة المؤمنون: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۞ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٨- ٢٠].

كما أن في الماء الذي ينزله الله من السماء حياةَ الأرض، وما عليها من حيوان وإنسان ونبات، فإن في زيادته إهلاكاً وإفساداً، وفي نقصه ظمأً وجفافاً، لذلك ينزله الله ﴿بِقَدَرٍ﴾؛ أيْ بمقدار محدد معين ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وإسكان الماء في الأرض نعمة أخرى من نعم الله على الناس؛ بحيث يستغلونه وينتفعون به وقت حاجتهم..، ومع ذكر النعم تذكير بأن الذي ساقها قادر على أن يذهب بها؛ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، وانظر إلى دقة التعبير وجماله؛

فقد جاء لفظ ﴿ذَهَابٍ﴾ نكرة، وفي النكرة إبهام، وفي الإبهام تتخيل ما تشاء من أوجه الذهاب به.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

وأحسب أن تقديم النخيل على الأعناب في هذه الآية جاء على اعتبار مقدرته الفائقة على امتصاص الماء المستقرِّ في عمق الأرض، فجذور النخيل ضاربة في أعماق الأرض أكثرَ من جذور العنب، وبالتالي فهي ذات مقدرةٍ أكبرَ على امتصاص الماء، وقد وصفها الله بقوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، كما أن الكمية التي يمتصها النخيل من الماء هي أكبر بكثير من تلك التي تمتصها غيرها من الأشجار المثمرة، وقد سبق هذه الآية إشارة السياق إلى إسكان الماء في الأرض.

ثم ينتقل السياق ليفرد لشجرة الزيتون حديثاً خاصاً:

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾، ومعنى تنبت بالدهن: أنها تنبت مُتَلَبِّسَةً بالدهن.. وجاء التعبير على هذا النحو الرائع للإشارة إلى أهمية زيت الزيتون، فكأنهما شيءٌ واحد. ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾: وذلك أنَّ «كل إدام يؤتدم به فهو صبغ وصباغ»[1].

سادساً: وقفة مع آيةٍ من سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

الأرض ﴿ٱلْجُرُزِ﴾ هي الأرض اليابسة التي لا تنبت إلا بسوق الماء إليها، وتقديم الأنعام على الإنسان في هذه الآية ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ جاء لأن الأنعام تستهلك من الزرع أكثر مما يستهلك الإنسان، والإنسان يأكل من الحبوب الخارجة من الزرع فقط، فيما تأكل الأنعام من حبوب الزرع وورقه وتِبْنِه.

---

(١) فتح القدير، ٣/ ٦٥١.

سابعاً: وقفة مع آياتٍ من سورة عبس: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس:٢٤- ٣٢].

يشدُّ السياق نظر الإنسان في هذه الآيات لكيفية حصوله على طعامه الذي تقوم به حياته، فالبداية تكون بالماء الذي ينزله الله من السماء، وتم التعبير عنه في هذه الآيات بلفظ ﴿صَبًّا﴾. والذي يعني الماء المنهمر بشدة وغزارة، ولفظ ﴿صَبًّا﴾ يتناسب جداً مع لفظ ﴿شَقًّا﴾، ونلاحظ أنه استخدم «**ثم**» التي تفيد التراخي قبل ﴿شَقَقْنَا﴾؛ ذلك أن انشقاق الأرض لخروج النبات منها يحتاج وقتاً بعد نزول المطر إليها.. أما عندما تنشق فلا أسرع من أن يخرج النبت منها، لذلك استخدمت الفاء في لفظ ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾، وجاء ترتيب الزرع والشجر في هذه الآية مراعياً أمرين اثنين اقتضاهما السياق، وهما: سرعة النبت، والاستخدام في الطعام، فبدأ بالحَبِّ ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾؛ لأن الحَبَّ أسرع نمواً وخروجاً من الأرض من غيره، والأكثر حاجة واستخداماً في الطعام، ثم قال: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾، وقد اختلف في معنى القضب، وأرجح ما جاء في المعجم الوسيط أنه: كل شجرة طالت، وبسطت أغصانها، وقال القتيبي وثعلب: وأهل مكة يسمون العنب القضب[١].

وقيل: المقصود به ورق العنب، وبالتالي فإن «العنب والقضب» يأتي بعد الحَبِّ من حيثُ سرعة النمو والنبت، والاستخدام في الطعام، ثم الزيتون فالنخل.

ومن الطَّبيعيِّ أن تأتي الحدائق «الغُلْب» بعد ذلك؛ لأن زراعة حديقة أشجار يأخذ وقتاً أكثر من زراعة شجيرات معينة محددة، ومعنى «**غُلباً**» الأشجار العظام غلاظ الرقاب. وقال قتادة: الغُلْب: النخل الكرام.

---

(١) الدكتور إبراهيم أنيس وزملاؤه،المعجم الوسيط، ص ٧٧٦، الطبعة الثانية.

أما الفاكهة والأَبُّ: فهي ثمار الأشجار والنبات، ومن البَدَهِيِّ أن تأتي أخيراً؛ لأن الحصول عليها يكون بعد نُمُوِّ الشجر والنبات، واشتداد عوده، واختلف في معنى الأَبِّ، وأرجح ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنه الثمار الرطبة، كما روي عن الضحاك قوله إنه: التين.

والله أعلم.

❊ ❊ ❊

المبحث السابع
وقفات مع قبضة من آيات الجهاد

في هذا المبحث أربع وقفات، فتدبروها لعلكم ترحمون:

أولاً: وقفة مع تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في آيات الجهاد:

إذا تتبعنا آياتِ الجهاد وجدنا أن الجهاد بالمال قد تَقَدَّم على الجهاد بالنفس فيها جميعاً، باستثناء آيةٍ واحدةٍ، هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فإن سياق هذه الآية مختلف تماماً عن سائر سياقات آيات الجهاد، فالحديث هنا عن البيعة مع الله، بيعِ النفس والمال مقابل الجنة، فقُدِّمَتِ النفس على المال؛ لأنها أغلى وأعزُّ ما يملكه الإنسان، ودونها يَرْخُصُ كل شيءٍ ويهون، وكذلك هي أغلى وأعزُّ عند الله الذي أمر بصيانتها وحفظها، إذن فهي الأغلى والأعز عند البائع وعند المشتري.

أما سائر الآيات؛ فإن الجهاد بالمال قد تقدم فيها على الجهاد بالنفس؛ لأسباب، أهمها هذان الاثنان:

أ- إنَّ الجهاد بالمال يسبق الجهاد بالنفس، فالمجاهد يقدِّم ماله أولاً، إما لتجهيز

نفسه، وإما للمساهمة في تجهيز غيره، والإعداد للحرب، وهو يقوم على المال.

ب ـ إنَّ العنصر المادي في الحرب لا يقل أهية من العنصر البشري، وربما يتقدم عليه كثيراً، فالحروب تدار بالمال غالباً، ويظهر هذا الأمر جلياً في هذا العصر، فبالمال تُشترى الأسلحة والمعدات الحربية، أو تُصَنَّعْ، وبه تُمتلك التقنيات العالية، وتشترى المعلومات، وتستعبد ذمم الرجال «المرتزقة»، وجهودهم.

من هنا كان تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، ولا وجاهة لرأي من يقول: إن التقديم جاء لأن مال الإنسان أعزُّ عليه من نفسه!

وهنا قد يسأل سائل: إذا كان هذا صحيحاً، فلماذا قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في الآيات التي تتحدث عن تفضيل المجاهدين على القاعدين؟

عند التدقيق في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]، نجد أن التفضيل يقوم على مقارنة بين فئتين من المؤمنين، فئة المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، وفئة القاعدين غير أولي الضرر، وبالتالي فإن الفضل الذي حازه المجاهدون مرتبط بتقديم أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والأموال تقدم ـ كما أسلفنا ـ أولاً، ثم إن السياق فيه إيحاء بالسبق، فالمجاهدون سبقوا القاعدين بالبذل والتضحية، ويتناسب مع «التسابق» تقديم المال على النفس. والله أعلم.

ثانياً: وقفة مع آية من سورة النساء:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

وقفتنا هنا حول ترتيب المستضعفين ﴿ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾؛ فلماذا جاء الترتيب

على هذا النحو، مع أن العربي تأخذه النخوة والحمية، ويستثار لاستنقاذ النساء والولدان أكثر من الرجال؟

إن الحديث في هذه الآية، كما في الآية ٩٨ من ذات السورة: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، يدور حول «الاستضعاف» وأكثر فئة تعاني من عملية الاستضعاف هي الرجال، يليها النساء، فالولدان، فليس أشدَّ على الرجل من أن يقهره رجل، ويذلَّه ويهينه.

من هنا كان الرسول ﷺ يستعيذ بالله في دعائه من قهر الرجال: «**وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**»[1]، فضلًا عن أن المراد بالمستضعفين في هاتين الآيتين هم الذين كانوا في مكة من المؤمنين تحت إذلال الكفار ـ مع أن الاعتبار بعموم اللفظ ـ، ومعلوم أن عاداتِ العرب وأعرافَهم في ذلك الزمن كانت تَحُدُّ ـ إلى حدٍّ كبير ـ من تعرضهم للنساء والولدان بالأذى والقهر والإذلال، وبالتالي فإن نصيب الرجال من «الاستضعاف» هو الأكبر، فالنساء، ثم الولدان، وعليه جاء الترتيب على النحو الدقيق، والله أعلم.

ثالثاً: وقفة مع السر في تقديم «في سبيل الله» أحياناً، وتأخيرها أحياناً، وإسقاطها أحياناً، وإثباتها أحياناً:

إن هذا مثالٌ آخرُ على دقة التعبير القرآني، وتناسق المعنى والمبنى، حيثُ الاختيار الدقيق للتعابير التي تناسب السياق؛ إنْ في التقديم والتأخير، أو الحذف والإبقاء، وفيه فقرتان:

أ ـ التقديم والتأخير: مثال عليه قوله تعالى في سورة التوبة:

---

(١) السجستاني، يزيد بن الأشعث، سنن أبي داوود ٢/ ٦٥١، تحقيق: الأرناؤوط، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، دار الرسالة العالمية.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

وفي سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [الأنفال: ٧٢].

في الآية الأولى من سورة التوبة قدم في سبيل الله على قوله: ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، ويعود ذلك؛ لأن هذه الآية جاءت في سياق إنكار الله على الكافرين التسوية بين ما كانوا يعملونه من سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام، وبين إيمان المؤمنين بالله، وجهادهم في سبيل الله، ولأن الفيصل في الموضوع الذي يُبْنَى عليه صلاح العمل وفساده، هو الإيمان بالله، وإخلاص العمل له؛ قُدِّم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أما الآية الثانية فسياقها مختلف تماماً، فهي تتحدث عن ولاء المؤمنين بعضِهم بعضاً، فهي تفصِّل في صفات المهاجرين وصفات الأنصار، وفئة ثالثة آمنت ولم تهاجر، فالإيمان ثابت للفئات الثلاثة، لكنَّ التفاضل في العمل، فاقتضى تقديم الجهاد بالمال والنفس على ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ب ـ الحذف والإثبات: وذلك في قوله تعالى:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤]، وقوله كذلك: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

نرى في الآية الأولى إثبات قيد ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ ذلك أن الخطاب موجَّه لعامة

المسلمين، فاستلزم استصحاب إخلاص النية لله في الجهاد..، أما الآيتان الأخريان فقد أثبت السياق فيها الإيمان والإخلاص والتقوى للمجاهدين ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ فلم يلزم إضافة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فحذفت لدلالة السياق عليها.

رابعاً: وقفة مع التقديم والتأخير في قوله ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾، و﴿ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً﴾:

جاء في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فيما جاء في سورة الأنفال، قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١].

وسِرُّ ذلك أن الآية الأولى من سورة آل عمران نزلت في غزوة أحد، فأنزل الله عليهم النعاس بعد الوعكة العسكرية ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾، أما الآية الثانية من سورة الأنفال، فقد نزلت في غزوة بدر؛ حيث أنزل الله النعاس على المؤمنين قبل المعركة، والفرق واضح بين الحالتين، الحالة الأولى في «أحدٍ» كانوا بحاجة إلى الأَمَنة؛ لاستحواذ ﴿ٱلْغَمِّ﴾ عليهم بعدَ رْفهم عن عدوهم، فقدَّمها السياق على النعاس ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾، أما الحالة الثانية في «بدر» فقد كان المسلمون في حالة توتر أعصاب فقط، فأنزل الله عليهم النعاس، كإجراء استباقي؛ لإراحة أعصابهم، وتهيئة نفوسهم للمعركة؛ لِيُقْدِموا عليها بهمةٍ وعزيمةٍ ونشاط، فالنعاس جلب «الأمنة»، ولأن الغمَّ لم يكن قائماً، كما هو الحال في الجولة الثانية يوم أُحُد، فلم يستدعِ السياق تقديم قوله ﴿أَمَنَةً﴾ على «النعاس»، فجاء «النعاس» أولاً.

❊ ❊ ❊

المبحث الثامن
وقفات متفرقة

في هذا المبحث خمس وعشرون وقفة من مواضعَ منثورةٍ في أقطار القرآن الكريم:

أولاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

السفيه من يبذر ماله فيما لا ينبغي، والسافه: الأحمق، يقال: سَفِهَ سفهاً، وسفاهة: خف وطاش وجَهل[١].

وقد انقسم العلماء في هذه الآية إلى فريقين، فريقٍ قال بأن المقصود بالسفهاء هم «اليتامى»، فيما قال فريق آخر، منهم الإمام مالك: هم الأولاد الصغار، ومن هو ضعيف الإدراك، الذين يفسدون المال، ويبددونه إنْ وضع في أيديهم.

وأميل إلى هذا الرأي، إذْ لا أرى من المناسب إطلاق اسم ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ على «اليتامى». إضافة إلى أن السياق لم ينسب المال لهم؛ بل قال: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾، وبالتالي فإن هذه الآية جاءت لتضع ضوابط صارمة للتعامل مع المال، أهمها: أن لا يوضع في أيدي ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ الذين يبذرونه تبذيراً، ولا يحسنون تشغيله وإنفاقه على الوجه الصحيح، حتى لو كان مالهم الخاص، فإن للأمة حقاً فيه، ولعل هذا من أسرار إضافة المال إلى المخاطبين مع أنها أموال اليتامى حقيقة.

---

(١) المعجم الوسيط، ص٤٦٠.

وقد استدل الجمهور بهذه الآية على جواز الحجر على السفهاء، وأقول: إن الخطاب في هذه الآية عام اللفظ، وهو يطال الأمة بمجملها، كما يطال كلَّ فرد من أفرادها، وسفهاء الأمة في هذا الزمان أكثر من أن يحصروا، منهم ملوك، وأمراء، وزعماء، وهم يبذرون أموالهم وأموال الأمة بالباطل، والمتع الحرام، والفساد والإفساد في الأرض، والصدِّ عن سبيل الله؛ فهل تستفيق الأمة، وتأخذ على أيدي ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾، وتحجر عليهم، وترد الحق إلى أصحابه، وتعيد الأمر إلى نصابه؟

إن المال قوام حياة المجتمع وصلاحه، وانتظام شأنه ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾، فينبغي حسن إدارته، واستخدامه وتشغيله على النحو المناسب، ومن لطائف التعبير القرآني، ودقته، أن السياق استخدم لفظ ﴿فِيهَا﴾ في قوله ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾، ويفهم من ذلك أن رزق ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ وكسوتهم تكون من أرباح المال المشغِّل، وليس من رأس المال، بخلاف ما جاء لاحقاً فيما يخصُّ قسمة أموال اليتامى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٨]، فالرزق هنا يكون من ذات المال، لذلك استخدم لفظ ﴿مِّنْهُ﴾.

ثانياً: وقفة مع قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وفيها فقرتان:

أ ـ سألني أحد الأخوة عن هذه الآية قائلاً: لماذا ورد لفظ ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ في معرض الحديث عن الزواج من الكتابيات ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، بينما لم يرد ذلك في الحديث عن طعام أهل الكتاب ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾؟

وبعد التدبر في هذه الآية الكريمة خلصت إلى استنتاج، مفاده أن المسلم لن يتحرج كثيراً إذا ما دُعي لأن يأكل من طعام كتابي، خاصة وهو يعلم أن الإسلام يبيح له ذلك.

أما الزواج فهو أمر عظيم، وقرار ينبغي التفكير فيه جيداً قبل الإقدام عليه، فالتي تتزوجها تصبح رفيقة عمرك، وشريكة حياتك، وأُمًّا لأولادك، والزواج من الكتابية مدعاةٌ لكثير من التساؤلات والحسابات، من هنا جاء إضافة لفظ ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيما يخصُّ الزواج من الكتابيات، ولم يَأْتِ في إباحة طعامهم.

ولفظ ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ جاء لغرضين:

١ـ التقييد باليهود والنصارى فقط، خاصة أنه قد ظهرت فِرَقٌ وطوائف ـ بعد الإسلام ـ يدَّعون أنهم أصحاب كتاب، وفي هذا إشارة تؤكد أن القرآن صالح لكلِّ زمان ومكان.

٢ـ والتذكير بأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى مؤمنون بالله، وكانوا على التوحيد والإيمان قبل المسلمين، وذلك لرفع الحرج عمَّن يرغب في الزواج من كتابية.

ب ـ وفي ذات الآية جاء قوله تعالى:

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾، فيما جاء في سورة النساء، بما يتعلق بنكاح «ملك اليمين» قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

إنَّ سبب اختلاف الخطابين أن السياق في سورة النساء يركِّز على تحصين «ملك اليمين»، وإظهار حكم الزواج منهن، وكل ما يترتب على ذلك ويتعلق به؛ أما في سورة

المائدة فإن الحديث يدور حول الرجال من المسلمين، فاقتضت الإشارة في النصِّ إلى أن إباحة نكاح الكتابيات هو من باب تحصين الرجال، وليس من باب السفاح، واتِّخاذ الأخدان، وهو ما يحرِّمه الإسلام، وينهى عنه.

ثالثاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾[هود: ٣٥].

استوقفني الاختلاف الذي وقع بين هذه الآية، والآية المشابهة من سورة سبأ ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]، فقد جاء في الآية الأولى لفظ ﴿إِجْرَامِى﴾ و﴿تُجْرِمُونَ﴾، فيما جاء في الآية الثانية لفظ ﴿أَجْرَمْنَا﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾. وبيان ذلك أن الآية الأولى تتحدث عن إنكار المشركين لرسالة نوح عليه السلام، واتهامهم له بالافتراء، فكان ردُّه عليهم: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾: أي اختلقتُه، ونَسَبْتُهُ بالباطل لله، فعليَّ إجرامي، فأنا أتحمل وِزْرَ ذنبي هذا، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾: أيْ بريء مما تنسبونه إليّ من الافتراء، فالعقاب عليكم وحدكم.

أما الآية الثانية، فالمعنى: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ لا تحاسبون عن ذنب اقترفناه، ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا نُسأل عن مطلق عملكم خيراً كان أم شراً.

والسؤال هنا: لماذا أُسند الجرم للمسلمين، ونسب مطلق العمل تعملون لغير المسلمين؟

من المفسرين من أرجع ذلك لمهادنة الكافرين، واستمالتهم، وتأليف قلوبهم، ومنهم من اعتبر الآية منسوخة بآية السيف، ولا أرى وجاهة في ذلك.

وأعتقد أن استخدام لفظ أجرمنا يجيء ليحصر ما لا يُسأل عنه الكافرون، ومن أعمال المسلمين من المعاصي والآثام، أما عملهم الصالح بما فيه دعوتهم إلى الإيمان والهداية والرشاد فهم يُسألون عنه؛ لأنهم لم يستجيبوا لدعوة الحق، ولم يقتدوا بالمؤمنين

في فعلهم الخير، في المقابل؛ فإن المسلمين لا يُسألون عن مطلق عمل الكافرين، الخير لأنفسهم، والشر عليها، والله أعلم.

رابعاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

قد يسأل سائل: لماذا جاء الخطاب في الآية للأرض أولاً: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، و من ثَمَّ للسماء: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، وهذا يعني أن الأرض ستبلع ماءها فيما السماء لا زالت تفتح أبوابها بماءٍ منهمر؟

هذه لفتة قرآنية أخرى تبيِّن دقة التعبير القرآني، وبلاغته، وجماله؛ إذْ إن ابتلاع الأرض للماء الذي غطَّى سطحها، وفاق ارتفاع الجبال الشامخات، لن يكون دفعة واحدة، وإنما بشكل متدرج، حتى لا تتحطم السفينة، ويهلك من على ظهرها، وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ يبين ذلك ويؤكده، أما إقلاع السماء عن إنزال الماء فيكون مباشرة، ومرة واحدة.

من هنا جاء الخطاب للأرض أولاً؛ نظراً للوقت الذي تستغرقه عملية ابتلاع الماء، و لتقدم دورها من حيث الأهمية في هذه العملية؛ إذْ إن السفينة في النهاية سترسو على سطحها.

خامساً: وقفة تأملية مع قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

في هذه الوقفة التأملية سنتعرف على صورة جديدة من صور بلاغة التعبير القرآني وروعته، تجمع بين دقة المعنى وبلاغة المبنى.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾.

قال بعض المفسرين: أعطاكم نصيباً من كلِّ خيرٍ سألتم الله أن يعطيكم إياه،

وقيل «إنه قد أعطاك ما تسأله وما لم تسأله، نطقت به أو لم تنطقْ، ولو بحديث النفس، أو خواطرَ خافيةٍ، وأنك قد تقترح شيئاً وتطلبه، فهو يعطيه لك»[١].

وقيل: المعنى «وآتاكم من كل ما سألتموه، ومن كلِّ ما لم تسألوه، فَحُذِفَتْ الجملة الأخرى، قاله ابن الأنباري، وقيل من زائدة: أيْ أتاكم كلَّ ما سألتموه، وقيل للتبعيض: أي آتاكم بعض كلِّ ما سألتموه.

وقرأ ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة «من كلٍّ» بتنوين كلّ[٢].

أقول: إن الآية مرتبطة بما سبقها من آيات، فهي معطوفة عليها، وفي تلك الآيات عدّد الله تبارك وتعالى مجموعةً من نعمه التي أنعم بها على الناس، من خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات، وتسخير الفُلْكَ في البحر، وتسخير الأنهار، وتسخير الشمس والقمر، والليل والنهار، فجاءت هذه الآية لتذكِّر بنعمة أخرى من نعمه تعالى على الناس، تتمثل باستجابة الله لدعوة من دعاه، وبما أن النعم التي ذُكِرَتْ آنفاً يستفيد منها المؤمن والكافر على حدٍّ سواء؛ فإن الخطاب في هذه الآية أيضاً عامٌّ يشمل المؤمن وغير المؤمن، ومعلوم أن الإنسان لا يسأم من دعاء الخير ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩]، ولا يعقل أن يحصل الإنسان على كلِّ ما يطلبه ويتمناه، وإنما على بعضه، بما يقدره الله، وبما تقتضيه حكمته وإرادته.

وبالمجمل؛ فإن كلِّ أوجه الخير التي يطلبها الناس ويحتاجونها موجودة، بفضل من الله، بين أيديهم، وهي تشمل ﴿كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ لكنَّ نصيب الفرد منها منوط بما قَسَّمه الله، وليس من إنسانٍ إلا وله من الخير نصيب، قلَّ ذلك أو كثر، من رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

---

(١) تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧٥٥٣.

(٢) فتح القدير، ٣/ ١٥١.

وبالتالي؛ فإن القول بأن الله يعطي كلَّ سائلٍ مسألته كاملة، أو بعضاً منها، يفتقر إلى الدقة.

فقد يسأل الله عبدٌ مسألةً، فلا يُستجاب دعاؤه ظاهراً، ولا ينال شيئاً من مراده عاجلاً؛ كأنْ يسأله الذرية، فلا يتحقق له ذلك، وعليه فإنني أعتقد أن معنى ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: هو أعطاكم الذي تحتاجونه كجماعة؛ بحيثُ أصبح متوفراً بين أيديكم، ينال كلُّ فرد منه ما يقسمه الله له ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فالسياق كما أسلفنا يتحدث عن تسخير ما في الكون للناس، والخطاب عام، وبالتالي فإننا أمام مسائلَ عامَّةٍ، وليست خاصةً متعلقةً بحاجات الناس، وتسهيل معيشتهم..، سألوا الله بلسان المقال والحال أن يوفرها لهم، فكان لهم ما أرادوه بما لا يحصى عدده، لكنَّ الإنسان سَرْعانَ ما يغفل عن شكر هذه النعم، فيظلم نفسه، ويظلم غيره، ويجحد ويكفر، وينكر ويتكبر ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

قال صاحب الظلال: «هي أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر أو كلُّ البشر، وكلُّهم محدودون بين حَدَّيْنِ من الزمان: بَدْءٍ ونهاية، وبين حدودٍ من العلم تابعةٍ لحدود الزمان والمكان، ونعم الله مطلقة ـ فوق كثرتها ـ فلا يحيط بها إدراك إنسان»(١).

وقال الشوكاني في فتح القدير: «وإنْ تتعرضوا لتعداد نعم الله التي أنعم بها عليكم إجمالاً فضلاً عن التفصيل لا تطيقوا إحصاءَها بوجهٍ من الوجوه، ومعلوم أنه لو رام فرد من أفراد العباد أن يحصيَ ما أنعم الله به عليه في خَلْقِ عضوٍ من أعضائه، أو

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢١٠٨.

حاسة من حواسه، لم يقدر على ذلك قط، ولا أمكنه أصلاً، فكيف بما عدا ذلك من النعم من جميع ما خلقه الله في بدنه، فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة إليه في كلِّ وقتٍ على تنوعها، واختلاف أجناسها[1].

وقد يسأل سائل: كيف لا نستطيع أن نحصيها مع أنها جاءت بلفظ المفرد، أيْ نعمة واحدة؟

إن لفظ «نعمة» جاء في هذه الآية بصيغة المفرد؛ لأنها استخدمت للدلالة على نعمة واحدة من نعم الله التي لا تُحصى، وهي نعمة ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، وهذه النعمة ينضوي تحتها ما لا يُحصى من النعم، فمن يستطيع أن يحصي النعم التي أنعم الله بها على عباده مما سألوه إياه؟! فكيف بما لم يسألوه؟!

وفي سورة النحل جاءت آيات مشابهة ـ مع بعض الاختلاف عن سورة إبراهيم التي ذكرتْ عدداً من نعم الله على الناس، وخُتمت كلتاهما بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

و هنا لا بُدَّ من الإجابة على سؤالين:

١ـ لماذا جاء لفظ «نعمة» في سورة النحل أيضاً بصيغة المفرد، مع أن الآيات التي سبقت تلك الآية ذكرتْ مجموعةً من النعم، وليس نعمةً واحدة؟

صحيح إن الآيات من سورة النحل ذكرت مجموعةً من النعم؛ إلا أن الآية التي سبقت مباشرة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، هي ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وهذه الآية تتحدث عن نعمة «الخلق»، وهي المقصودة بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

---

(١) فتح القدير، ٣/ ١٥١.

٢ـ ما سِرُّ تذييل الآية من سورة إبراهيم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ والآية من سورة النحل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؟

قلنا: إن الآية من سورة إبراهيم تتحدث عن نعمة ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

وواقع الحال أن الناس يقابلون هذه النعمة بالجحود، وظلم النفس، وظلم الغير: ظلم النفس بعدم شكر النعمة، وعدم أداء حقِّ الله فيها، وظلم الغير بالاعتداء على حقوقهم، فكان التذييل بجملة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ مناسباً لسياق الآية.

أما الآية من سورة النحل؛ فإن سياقها مغاير، فالله يغفر للناس ويرحمهم، فيسبغ عليهم نعمه، رغم عدم تَفَكُّرِهم في هذه النعم، وتذكرهم شكره عزَّ وجل عندما يرون خلق الله وقدرته مقابل عجزهم وضعفهم ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ قال الزجاج: إن الإنسان اسم جنس يقصد به الكافر خاصة.

وأرجح القول بظاهر النصِّ أن المقصود به كلُّ إنسان، وظلوم: لنفسه بإغفال شكر نعم الله عليه، ولغيره بنقل حقِّ غيره لنفسه، كَفَّار شديد كفران نعم الله عليه.

أخرج ابن أبي حاتم عن عمرَ بنِ الخطاب أنه قال: اللهم اغفر لي ظلمي وكفري، فقال قائل: يا أمير المؤمنين: هذا الظلم، فما بال الكفر؟ قال: إن الإنسان لظلوم كفار.

ونلاحظ أن النعمة في القرآن الكريم جاءت بصيغٍ مختلفة، في كلِّ موضعٍ ورد ما يتناسب معه، كما يظهر من اللطائف الأربع التالية:

أ ـ فقد جُمعت «جمع قلة» في قوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النحل: ١٢١]، ذلك أن إبراهيم عليه السلام لا يمكنه أن يشكر نعم الله كافَّةً، وإنما بعضاً منها.

ب ـ فيما جُمعت في سورة لقمان «جمع كثرة» في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]؛ لأن نعم الله أكثر من تحصى.

ج ـ وهي تأتي بفتح النون نَعمة عندما يتحدث السياق عن النعمة الظاهرة؛ كما في قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧].

د ـ وتأتي بكسر النون نِعمة عندما تحتمل أن تكون باطنة خافية، أو يكون جزءٌ منها باطناً، وآخرُ ظاهراً.

سادساً: وقفة مع ﴿ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾:

ورد ذكر القانع والمعتر في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

وقد اختلف العلماء في القانع مَنْ هو؟ فقيل: هو السائل، وقيل: هو المتعفف عن السؤال بما عنده، وقيل: القانع من القناعة: وهي الرضا والتعفف وترك المسألة.

أما المعترُّ: فقيل: هو الذي يتعرض من غير سؤال، وقيل: هو الذي يعتريك ويسألك، وقال مالك: أحسن ما سمعت أن القانع: الفقير، والمعتر: الزائر.

وروي عن ابن عباس قوله: إن كليهما الذي لا يسأل، ولكن القانع الذي يرضى بما عنده ولا يسأل، والمعتر الذي يتعرض لك ولا يسألك.

والأرجح عندي أن القانع: هو الفقير المتعفف عن السؤال، المستغني بما عنده، أما المعتر، فهو الذي يتعرض بالسؤال.

والذي أودُّ أن أشير إليه في هذا الموطن، هو تقديم القانع على المعتر «القانع أولا»، والذي يعني أن على الأمة، وخاصة أصحاب المال والقرار فيها؛ أن يتفقدوا دائماً هذه

الفئة من الناس، الذين أُشير إليهم في موضع آخر من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، فهؤلاء ينبغي أن يَفْطَنَ المسؤولون لهم، ويعطوهم حقَّ الأولوية، فمثلهم لا يُنسى ولا يُستثنى، ويقاس على هذا الأمر أصحاب الكفاءة والفضل الذين يقنعون بمواقعهم، ولا يزكون أنفسهم، ولا يسعون للمكانة والسيادة والريادة، بالتعرض أو الطلب المباشر، مع أنهم الأحقُّ بها وأهلُها، فعلى الدعوة والدولة أن تتنبه لهؤلاء المخلصين الشرفاء، بل وتبحث عنهم، فتقدمهم على غيرهم، وتوسد الأمر إليهم فهم الأجدر، والأصلح والأنسب.

سابعاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

إني لأعجب كيف يقرأ هذه الآية مؤمنٌ، ولا يزداد إيماناً ويقيناً! أو كافرٌ ملحدٌ، ولا يَخِرُّ راكعاً منيباً! لكنَّها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور..، إني كلما قرأت هذه الآية، تملأ قلبي الهيبة والرهبة، وأقف خاشعاً أمام بلاغة كلماتها، وعمق معانيها ودلالاتها.

فنحن أمام آية بينة جامعة، تجمع بين بلاغة الكلمة، وبراعة التمثيل، وعذوبة الأسلوب، وحسن تأليف الجمل، وروعة الْتئام الكلمات، ووضوح الفكرة، وبيان الحجة، وإعجاز المعلومات.

انظر إلى دقة الأسلوب في الخطاب العام ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذي يشمل المؤمن والكافر؛ ليستمعوا للمثل المضروب ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، وكيف يتحول بسرعة؛

ليصبح خطاباً خاصاً بالمشركين وحدهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ليبقى المؤمن في هذا المشهد في موقع المستمع المتابع للحوار، وانظر إلى براعة التمثيل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾، إن الذين تدعون من دون الله من أصنام وأشياء، وأولياء، وزعماء، لن يستطيعوا خلق كائن ضعيف حقير، ولو اجتمعوا على ذلك! واستخدام حرف النفي لن فيه من الدقة والبلاغة ما فيه، فهي تفيد تأبيد النفي، بمعنى أن التحدي مستمر أَبَـدَ الدهر، وليس مرهوناً بزمن أو عصر.

ولم يقفِ التحدي عند هذا الأمر، فلإظهار عجزهم، وضعفهم، وقلة حيلتهم، وبصيغة تجمع بين التهكم والتحدي، يردف بقوله: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُ﴾، وانظر إلى جمال التعبير هنا باستخدام لفظ ﴿يَسۡلُبۡهُمُ﴾ ﴿يَسۡتَنقِذُوهُ﴾ فالسلب يعني: انتزاع الشيء قهراً[1]، والاستنقاذ: يعني بذل الجهد والطاقة، واستخدام الإمكانيات؛ المتاحة لاستعادته واسترجاعه، وفي هذه «المعركة» ينتصر «الذباب» الضعيف الحقير، وتنهزم «الآلهة» والطغاة والجبابرة!

وانظر إلى إعجاز المعلومة في قوله: ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُ﴾؛ فقد أثبت العلم الحديث أن الذباب لا يمتلك جهازاً هضمياً، وأنه يحوِّل ما يمتصه لطاقة بسرعة مذهلة.

وانظر إلى: بلاغة الإيجاز، وعذوبة الأسلوب، وحسن التأليف، ودقة المعنى، في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾، حقاً: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحج:٧٤]!

ثامناً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

---

(١) راجع المعجم الوسيط، ص٤٤٠.

شدَّ تقديم الزانية على الزاني في هذه الآية انتباه كثير من العلماء والمفسرين، منهم من أرجع ذلك للاعتقاد السائد بأن المرأة هي الأساس في وقوع فاحشة الزنى؛ لشدة فتنتها، وإغوائها الرجل.

وزعم آخرون أن سبب التقديم يعود لكون النساء أكثرَ وقوعاً في فاحشة الزنى من الرجال، واستشهدوا على ذلك بأن عدد الزانيات في كل مجتمع أكثر من عدد الزناة! وهذا خطأ مطلق، والعكس هو الصحيح، فلو فرضنا أن في مدينة معينة مئةَ زانيةٍ لوجدنا مئاتِ الرجال يرتادون عليهن.

جاء في التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي: «قدم السارق على السارقة؛ لأن السرقة في الذكور أكثر، وقدم الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾؛ لأن الزنى فيهن أكثر، أَلا ترى أن قسماً من النساء يحترفن هذه الفعلة الفاحشة؟!

وجاء في حاشية ابن المنير على «الكشاف» قوله: «وقدم الزانية على الزاني، والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنى، والأصل فيه المرأة، كما يبدو منها من الإيماض والإطماع والكلام، وقد يكون التقديم لملاحظَ أخرى تتناسب مع السياق»[1]، وهذا أعتقده، فأحسب أن سبب تقديم الزانية على الزاني في هذه الآية مخالف تماماً لكل هذه الآراء، وغير متعلق بالمطلق بها، ولو دقَّقنا في سياق الآية لوجدنا أنها تأمر بجلد الزاني والزانية مئة جلدة، وتنهى عن الرأفة بهما ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾، وهنا تتضح الحكمة؛ فالمرأة أكثر استدراراً للشفقة والرأفة من الرجل، وبما أن الحديث عن العقوبة الجسدية والجلد؛ فإن القلوب قد تَرِقُّ للمرأة الضعيفة، وتُشفق عليها، فيحدث التردد في إيقاع العقوبة، وإقامة حدِّ الزنا عليها، من أجل ذلك قدمت الزانية على الزاني لا لسببٍ آخر، والله أعلم.

---

(١) السامرائي، د فاضل، التعبير القرآني، ص٥٩، ط١ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، دار عمار/ عمان.

تاسعاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

لم أَجِدْ ـ وأنا أقرأ ما كتبه كبار المفسرين حول هذه الآية الكريمة ـ أروعَ ولا أدقَّ ولا أبلغ مما كتبه الشهيد سيد قطب، وأنا هنا أقتبس بعضاً منه؛ لما فيه من أهمية وفائدة:

«إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود، الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً، فيسوء تقديرهم لجميع القيم، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات، وتختلُّ في أيديهم جميع الموازين. ولا يعرفون إلى أين يتوجهون، وماذا يأخذون، وماذا يَدَعُون؟».

«وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان، ويحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض، فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائِبهم، ويخشونها ويفزعون منها، ويترضَّوْنها؛ ليكفُّوا عن أنفسهم أذاها، أو يضمنوا لأنفسهم حماها!».

«وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة، وتملكها، وتمنحها، وتوجهها، وتسخرها كما تريد».

«وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى، سواء كانت في أيدي الأفراد، أو الجماعات، أو الدول؛ كالْتجاء العنكبوت لبيت العنكبوت.. حشرة ضعيفة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو، ولا وقاية لها من بيتها الوهن».

«لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس، وعمرت كل قلب، واختلطت بالدم، وجرت معه في العروق، ولم تعد كلمةً تقال باللسان، ولا قضية تحتاج إلى جدل؛ بل بديهة مستقرة في النفس، لا يجول غيرها في حسٍّ ولا خيال».

«قوة الله وحدها هي القوة، وولاية الله وحدها هي الولاية، وما عداها فهو واهن

ضئيل هزيل، مهما علا واستطال، ومهما تجبَّر وطغى، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل».

«وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى، وللإغراء والإغواء، لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة، ولا ينسوها لحظة، وهم يواجهون القوى المختلفة، هذه تضربهم، وتحاول أن تسحقهم، وهذه تستهويهم، وتحاول أن تشتريَهم، وكلُّها خيوط العنكبوت في حساب الله، وفي حساب العقيدة حين تصحُّ العقيدة، وحين تعرف حقيقة القوى، وتحسن التقويم والتقدير»[1].

ومن جمال التشبيه ودقته في هذه الآية، أن العنكبوت تنسج بيتها بدقة واحتراف، يثير الإعجاب، لكنه مع هذا الجهد المبذول فيه، وهذا الشكل الفني اللافت، واهن ضعيف، لا يقيها حَرَّاً، ولا قُـرَّاً، ولا مطراً!

وكذلك الذين يتخذون من دون الله أولياء، يعقدون معهم تحالفاتٍ، ويبرمون اتفاقات، ويديرون مؤامرات، يبتغون عندهم العزة والمكانة والسيادة، ما يلبثون أن يكتشفوا أنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئاً، وأن ما يستندون إليه من قوة هو ـ في ميزان قوة الله ـ أوهن من بيت العنكبوت.

وضعف بيت العنكبوت لا يقتصر على بنائه وهيكله، وإنما يمتدُّ ليشملَ البناء الأسري، فهو هشٌّ ومفكَّكٌ من الداخل؛ فَذَكَرُ العنكبوت يقتل ـ أحياناً ـ أولاده، والأنثى تقتل زوجها! فاستحق بيت العنكبوت بذلك أن يوصف أنه أوهن البيوت.

عاشراً: وقفة مع آيةٍ من سورة سبأ:

جاء في سورة سبأ قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٧٣٦- ٢٧٣٧.

لأنَّ هذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي تقدم فيه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على ﴿ٱلْغَفُورُ﴾؛ إذْ إن سائر المواضع يتقدم فيها الغفور على الرحيم، فما سِرُّ ذلك؟

جاء في التعبير القرآني للسامرائي: «سبب تقديم الغفور على الرحيم أن «المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة، وإنما تأخرت في آية سبأ، فالرحمة شملتهم جميعاً، والمغفرة تخص بعضاً منهم، والعموم قبل الخصوص بالرتبة»، وإيضاح ذلك أن جميع الخلائق من الإنس والجن، والحيوان، وغيرِهم، محتاجون إلى رحمته، فهي برحمته تحيا وتعيش، وبرحمته تتراحم، وأما المغفرة فتخص المكلَّفين، فالرحمة أعم»[1].

وأضيفُ لما أورده الدكتور فاضل السامرائي ملاحظة أخرى، وهي أن هذه الآية من سورة سبأ تتحدث أولاً عن إنزال المطر وإنبات النبت، وفي ذلك رحمة للعالمين.

ثم عروج الملائكة والأعمال إلى السماء، حيث يتناسب معها المغفرة، فتقدمت الرحمة لِتقدُّمِ ما يتعلق بها، وتأخرت المغفرة لِتأخُّرِ متعلقها في السياق.

أما تقديم المغفرة على الرحمة في سائر المواضع في القرآن الكريم، فلأن السياق يتحدث عن أعمال العباد، ومن الطبيعي أن تسبق المغفرة، الرحمةَ «غفرَ فَرحِمَ»، ولو تقدمت الرحمة على المغفرة في تلك المواضع لكانت المغفرة تحصيلَ حاصلٍ، ولما كان من داعٍ لذكرها، والله أعلم.

حادي عشر: وقفة مع آية العزة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

---

(١) التعبير القرآني، ص٥٧.

العزة: تعني المنعة، والعزيز: هو الممتنع الذي لا يُنال بالأذى، ولذلك سُمِّيَتِ العقاب: عزيزة، لأنها تتخذ وكرها في أعلى الجبل، فهي ممتنعة على من يريدها[١].

والخطاب في الآية عام يشمل كل من يطلب العزة والشرف والمنعة، وما من أحد إلا ويطلبها ويبتغيها، ويسعى لها، لكنَّ كثيراً من الناس يتيهون، ويضلون الطريق؛ إما جهلاً، أو أضلَّهم الله على علم، فيبحثون عنها ويبتغونها عند من لا يملكها، أو عند من استمدَّ شيئاً منها من مصدرها الأصلي الأول.

من هنا أنكر القرآن الكريم على الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، مصوباً منهجهم، ومعدلاً مسارهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

«ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب ليقف به أمام الدنيا كلِّها عزيزاً كريماً ثابتاً في وقفته غير مزعزع، عارفاً طريقه إلى العزة، طريقه الذي ليس هناك سواه؛ إنه لن يحنيَ رأسه لمخلوق متجبِّر، ولا لعاصفة طاغية، ولا لحدث جلل، ولا لوضع ولا لحكم، ولا لدولة ولا لمصلحة، ولا لقوة من قوى الأرض جميعاً»[٢].

وكما تُنَبِّهُ آية العزة الناس، وتبين لهم أن العزة لله وحده، منه تنال، ومنه تطلب، وهو وحده الذي يمنحها أو يمسكها، فإنها توضح للمؤمنين سبيل بلوغ العزة ونيلها؛ إذْ تجد أن الآية تربط بين العزة والكلم الطيب والعمل الصالح.

إن الإيمان واليقين الصادق بالله يكسب صاحبه عزة روحانية قلبية وشعورية، ويجعله يقف في وجه الصعاب والشدائد، قوياً صلباً ثابت الجنان، ويدفعه للتضحية

---

(١) الفروق اللغوية، ص١٢٦ - ١٢٧.
(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٩٣٠.

بكل ثمين وغالٍ، لكن العزة لها وجه آخر مادي، لا يبلغه حتى المؤمن إلا بالكلم الطيب والعمل الصالح.

أما الكلم الطيب: فيشمل كلَّ كلام يصحُّ أن نصفه بكونه طيباً، ولا يقتصر على ذكر الله وتحميده وتمجيده، وتلاوة كتابه، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر؛ بل هو أوسع من ذلك بكثير؛ إذْ يشمل العلوم النافعة بكلِّ فروعها وأنواعها.

ونحن إذْ نتحدث عن العزة بوجهيها المادي والمعنوي، فإن الكلم الطيب له في ذلك دور هام، وأثر بالغ، لا بُدَّ أن نبرزه.

في البدء كانت الكلمة، وبالكلمة خلق الله الخلق كله، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، والتقوى كلمة ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦]، والكفر كلمة ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ٧٤]، والكلمة خافضة رافعة، إما أن ترفعه؛ إنِ استمع «للكلم الطيب»، ونطق به واتَّبعه، وتخلَّق به «رفع» ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾. وإن أصغى لمنكر القول وسُوئه وزُوره وبهتانه، واتَّبعه، وتخلَّق به، وخاض مع الخائضين، هَوَتْ إلى الحضيض به قدمه ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

إن أمة يشتغل أفرادها بالغيبة والنميمة، وتمتهن منكر القول وزوره وباطله، وتتخلَّى عن العلوم النافعة، وقولِ الحقِّ والصدق، والكلمة الطيبة، لا يمكن أن تفلح أبداً.

ولا يخفى على أحد الدور الخطير الذي تلعبه وسائل الإعلام المعاصرة، المرئية منها والمسموعة والمقروءة؛ إنها تستخدم الكلمة بشكل فنيٍّ ذكيّ، وتستغلها وتوظفها في خدمة مصالحها وسياساتها، وسياسة من يمتلكها ويُموِّلُها، وإن من وسائل الإعلام وسائلَ إعماءٍ وتضليل، تقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، وتروج المنكر وتزينه، وتنكر الحقَّ وتزدريه، وتمدح السفيه، وتذمُّ الكريم، وترفع من شأن الوضيع، وتحطُّ من قدر الشريف، وتسفهه، وتتخذه سِخْرِيًّا.

من هنا، ولأهمية الكلمة، وخطورة تأثيرها ودورها؛ نجد أن القرآن الكريم في كثير من مواضعه، قد نهى عن منكر القول وزوره، وبيَّن فضل «الكلم الطيب»، وأمر به، فقال تعالى:

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وشبَّه القرآن الكريم الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وهي النخلة، والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، وهي الحنظلة، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤- ٢٧].

وجاء في صفات عباد الرحمن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان:٦٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان:٧٢].

وورد عن رسول الله ﷺ قوله: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها**» أي لا يفكِّر فيها؛ أهي خير أم لا، «**يزلُّ بها إلى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**» متفق عليه(١).

كما ورد عنه ﷺ قوله: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**، قالوا: يا رسول الله: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: **نعم؛ يسبِّ أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه**»(٢).

وقال ﷺ أيضاً: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**»(٣).

---

(١) صحيح البخاري٨/ ١٠٠، صحيح مسلم٤/ ٢٢٩٠.
(٢) صحيح مسلم١/ ٩٢.
(٣) ١/ ١٠.

ب ـ وأما العمل الصالح: فبما أننا نتحدث عن العزة بوجهيها المعنوي والمادي؛ فإن العمل الصالح يأتي هنا بمفهومه الواسع الشامل، فيشمل كلَّ عملٍ يقوم عليه صلاح الدين والدنيا، ولا يقتصر على الطاعات والقربات، كما يعتقد بعض الناس، فالعزة المعنوية تكتسب بالعبادات، والطاعات، أما العزة المادية فتحتاج فوق ذلك إلى كلِّ عملٍ دنيويٍّ جادٍّ ونافع ومتقن، يرفع من مكانة الأمة وهيبتها، ويقوِّيها، ويمكِّن لها في الأرض..، والعمل حتى يكون صالحاً، فلا بد أن يكون خالصاً لله، وابتغاء مرضاته.

إن الإنسان يُنسب لعمله، ويُعرف به، فيقال: فلان رجل صالح، وفلان رجل فاسد، وانظر كيف وصف الله ابن نوح بقوله ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: ٤٦]، فجعل هذا النص ابن نوح وعمله شيئاً واحداً، ومن هذا الفهم جاء قول عليٍّ كرَّم الله وجهه: «قيمة كل إنسان ما يحسنه»، والذي لا يحسن شيئاً لا يساوي شيئاً.

وانظر إلى حال أمتنا اليوم، إنها الوحيدة ـ بين الأمم ـ التي لا تكاد تحسن شيئاً! ففيما أُمَمُ العالم تتنافس في الاختراع، وتتسابق في الاتقان والإبداع، تعيش أمتنا حالةً من التيه والتخبط، والضياع والخلاف، والشقاق والنزاع! ولن تعود الأمة لسالف عهدها، ويصلحَ حالها؛ إلا إذا عادت وتمسَّكت بكتاب ربِّها، وابتغت العزة عند الله وحده، بالكلم الطيب والعمل الصالح.

وانظر إلى بلاغة التعبير القرآني ودقته، فقد ترك السياق الضمير في ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾ مبهماً؛ بما يفتح باباً رحباً واسعاً للتدبر والتفكر، فقيل: إن الضمير يعود على الكلم الطيب، بمعنى أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، ووجهه أنه لا يُقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح، وقيل: إن فاعل يرفعه هو الكلم الطيب، ومفعوله العمل الصالح، ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع الكلم الطيب، ومنه التوحيد والإيمان.

وقيل: إن فاعل يرفعه ضمير يعود إلى الله عزَّ وجلَّ، والمعنى أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب؛ لأن العمل يحقِّق الكلام، أو يرفعه، بمعنى يتقبله، في إشارة إلى أن العمل غير الصالح لا يتقبل ولا يرفع.

وقيل: والعمل الصالح يرفع صاحبه، وهو الذي أراد العزة. وقال قتادة المعنى أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه[١].

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

الذين يمكرون السيئاتِ هم الذين يستخدمون الأساليب والوسائل غير الشريفة من خداعٍ واحتيالٍ، وكيدٍ وتآمر؛ لبلوغ العزة، فيدوسون في طريق سعيهم للمجد والعزة والمنعة على كلِّ القيم والمبادئ، ويستبيحون الدم، والعرض، والمال الحرام، فهؤلاء توعَّدهم الله بالعذاب الشديد، وبوار مكرهم: أيْ فشله وبطلانه، وعدم تحقيقه غايَته المقصودةَ منه.

ثاني عشر: وقفة مع قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

﴿بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾: بلغ السن التي تؤهله للعمل، وهي سنُّ البلوغ، والانتقال من مرحلة الطفولة إلى الشباب، قال الفراء: «كان يومئذٍ ابنَ ثلاثَ عشرةَ سنة، وقال ابن زيد: هو سعي العبادة، وقيل هو الاحتلام»[٢]، وفي هذه السن يكون الابن أحبَّ ما يكون إلى قلب أبيه، ويرى فيه طفله الذي ما زال متعلقاً به، وولدَه الساعيَ لمساعدته ومساندته.

في هذه اللحظة الهامة من حياة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، يرى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه، ويفهم أن الله ما كان ليأمره مباشرة، أو وحياً بذبح ابنه؛ لأن الله

(١) انظر فتح القدير للشوكاني، ٤/ ٤٥٠.
(٢) فتح القدير، ٤/ ٥٣١.

ينهى عن الفحشاء، والمنكر، والبغي، ولا يمكن أن يأمر بذلك، لذا جاء الطلب عبر الرؤيا، ورؤيا الأنبياء حقٌّ، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا الاستجابة المباشرة الكاملة لإرادة الله، فلم يناقشْ، ولم يجادلْ، ولم يستوضح.

إنَّ إبراهيم قد جادل في قوم لوط ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، لدرجة أن طلب الله منه الكفَّ عن ذلك ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٦]، لا تتعبْ نفسك؛ فلن يَرُدَّ عذابَ الله عنهم جدلك.

وإبراهيم الذي قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، لم يناقش، ولم يجادل في ذبح ابنه؟! رغم عظم هذا الأمر، وشدته على نفسه، فلا أتخيل ابتلاءً أعظمَ من هذا الابتلاء، الذي يؤمر فيه الرجل بذبح ابنه ووحيده، الذي جاءه بعد أن بلغ من الكبر عِتِيًّا، وعندما شبَّ، وبدأ يشتدُّ عوده، وأن يذبحه بيده! ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦].

لكنه إبراهيم الذي وصفه ربُّه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، وفي هذا درسٌ لكل الدعاة والمجاهدين: أن إذا كان أمر التضحية والبذل متعلقاً بك؛ فكنِ المسارعَ المبادر، وإذا تعلق بغيرك؛ فجادلْ، وناقشْ، وتحقَّقْ، ولا تُقْدِمْ على التضحية بأحد من جندك، وممن هم تحت إمرتك، حتى تتأكد أنها في مكانها، وأن الحاجة تستدعيها.

وهذا إسماعيل عليه السلام يستسلم لأمر ربه، ويُسْلِمُ نفسَه للذبح، بطمأنينةٍ ورباطة جأش، فكان صابراً بحقٍّ، ووفَّى بوعده: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فأيُّ فتىً هذا الذي يُسْلم نفسه للذبح طواعية؟! إنه فعل الإيمان، وأثر اليقين عندما يتعمَّق في القلوب، ويتجذَّر فيها، وتطمئنُّ له النفوس، وتسمو به الأرواح.

وقد اختلف في الذبيح؛ حيثُ روي عن عدد من الصحابة والتابعين أنه إسحاق، إلا أننا **نرجح أنه إسماعيل** للقرائن الأربع التالية:

١ـ إن الذي عاش في مكة هو إسماعيل، وليس إسحق.

٢ـ إن الآية تتحدث عن البشرى بغلام حليم، وهي صفة إسماعيل، أمّا إسحاق فصفته «عليم».

٣ـ إنه جاء في سياق الآيات عقب الحديث عن الرؤيا، والفداء بالذبح العظيم قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات: ١١٢]، فلا يستقيم أن يعود السياق على ذكر ذات البشرى، بعد أن ذكرها سابقاً، وأفاض بالحديث عنها، فلا بُدَّ أن تكون البشرى الثانية غيرَ الأولى.

٤ـ ثم إن البشرى بإسحاق اقترنت بالبشرى بيعقوب ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فكيف يؤمر بذبحه، ولمَّا يأتِهِ يعقوب؟ وبالتالي فإني أرجح أن يكون من قال بأن الذبيح هو إسحاق قد تأثر بقول يهود، في ظل عدم تصريح القرآن باسم الذبيح، والله أعلم.

ثالث عشر: وقفة مع أرجى آية في كتاب الله:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

إنَّ أعظم آية في كتاب الله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ...﴾ [النحل: ٩٠]، وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً لله يفعل ما يشاء: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ...﴾ [الطلاق: ٢- ٣]، وأشدُّ آيةٍ في كتاب الله رجاء ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ [الزمر: ٥٣][1].

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد ١/ ١٧١، وقال الشيخ الألباني حديث حسن، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م مع تخريجات الشيخ الألباني، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.

وورد عن رسول الله ﷺ قوله: «ما أُحِبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾»[1]، وهذا يدلُّ على أهمية هذه الآية الكريمة ومكانتها، وعظم ما تحمله من معانٍ ودلالات.

فقد أضاف الله جلَّ وعلا في هذه الآية العباد إلى نفسه، وفي ذلك تشريف لهم وطمأنة، وإثبات الياء في «عبادي: يدل على التوسع في استغراق أفراد جنسها، ووصف العباد بقوله ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أيِ الذين أفرطوا في المعاصي، واستكثروا من الذنوب والآثام، وبالتالي فإن البشرى تشمل ـ بالضرورة ـ من هم دونهم من بابٍ أولى.

ثم نهاهم عن القنوط واليأس من رحمته ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، وحتى يزيل كل شكٍّ عندهم من إمكانية رحمة الله بهم، ومغفرته لهم؛ أردف بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وتعريف ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾ بالألف واللام يعني استغراق اللفظ جميع أفراده، ولزيادة التأكيد على مغفرة الله لسائر الذنوب أَتْبع ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾، وبتأكيدٍ آخرَ لتلك المغفرة، يأتي التعقيب في ختام الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ونلاحظ إثبات الضمير «هو» من أجل التوكيد؛ لأن السياق ـ كما أسلفنا ـ يستدعي ذلك، فيما أُسقط في آيةٍ مشابهة من سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فالحديث هنا عن عمل «السوء بجهالة»، ولا يستدعي مزيدَ توكيدٍ للمغفرة لمن تاب وأصلح.

---

(١) مسند أحمد ٣٧/ ٤٥.

رابع عشر: وقفة تأملية مع قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ * وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠- ٢٢].

حاولتُ في هذه الوقفة التأملية الإجابة على سؤالين اثنين، يستدعيهما التفكر في هذه الآيات، وهما:

١ـ ما سِرُّ ترتيب الحواس السمع، الأبصار، والجلود على هذا النحو الذي جاء في الآية؟

اعتقد بعض الناس أن الترتيب متعلق ببداية عمل هذه الحواس عند الإنسان، وفي رأيي أن هذا التصور خاطئ، صحيحٌ إن حاسة السمع هي أول حاسة من الثلاث تعمل عند الإنسان؛ إذْ تبدأ عملها ـ حسب ما يذكره أطباء مختصون ـ والجنين في بطن أمه ما بين الشهر الرابع والخامس، إلا أن الإحساس بالجلْدِ يسبق الإبصار عند الطفل.

والذي أراه أن الترتيب متعلق بدور كلِّ حاسة من هذه الحواس في عمل المعاصي، من حيث الاستباق إليها.. فبما أن شهادة هذه الحواس متعلقة بعمل المعاصي، فمن المنطقي أن يرتبط الترتيب بدور كلِّ حاسةٍ، ودرجة تأثرها وتأثيرها في فعل المعصية.

ولا شكَّ أن دور «السمع» في فعل المعصية يسبق دور البصر، والبصر يسبق الجلد.

فالذي يرتكب معصية ما تتجمع لديه أولاً معلومات عنها، فيكون الدور الأساسي والأول فيها للسمع، ثم تكون المشاهدة والمعاينة البصرية، ثم تكون المواقعة والمباشرة، حيثُ يظهر دور الجلد، وكذلك فإن أول حاسة تؤثر في الإنسان

من ناحية خلق حالة من القابلية لديه لفعل المعصية هي «السمع»، حيثُ يتأثر الطفل بما يسمعه من المحيطين به أكثر مما يراه.. فكل مولود يولد ـ كما أخبر الرسول ﷺ ـ على الفطرة، فيكون كالصفحة البيضاء..، ثم تبدأ بالتلون بتأثير المحيطين به من خلال ما يلقونه في أذنيه، ثم ما يراه، وذلك قبل أن تتحرك فيه الشهوات والرغبات، والتلذذ بالملامسات الجلدية.

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

ففي هذه الآيات، وآيات كثيرة مشابهة تَمَّ تقديم السمع على البصر؛ لأنه الأسبق في التأثر والتأثير والمعرفة، ونخلص بالتالي إلى نتيجةٍ مفادها أن ترتيب هذه الحواس جاء ـ والله أعلم ـ بناءً على دور كلِّ حاسةٍ من حيث الاستباق لفعل المعصية، الأسبق إليها فالأسبق، وهذا ما يشير إليه سياق الآيات، وينسجم معه..، فيما وجدنا أن الترتيب في مواضعَ أخرى من القرآن الكريم يختلف؛ لاختلاف السياق، ففي سورة الأعراف مثلاً جاءت القلوب أولاً، ثم الأبصار، فالسمع، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فجاء الترتيب على هذا النحو؛ لأن الإيمانَ مكانُه وموطنُه القلب، فإذا صلح وخشع تبعته سائر الجوارح بالصلاح والخشوع، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح، وأول هذه الجوارح وأقواها تأثيراً وتأثراً هي الأبصار، فهي ترى آياتِ الله، و بديعَ صنعه في الكون، يليها السمع.

وجاء ترتيبٌ آخرُ في ذات السورة، وهذه المرة تبعاً للقوة والشدة والأهمية، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف:١٩٥].

٢ـ لماذا تَمَّ تخصيص الجلود بالسؤال ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ دون السمع والأبصار؟

تخصيص الجلود بالسؤال يجيء من باب مخاطبة الجزء وإرادة الكلِّ، وأمثلة ذلك في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، فقد عبَّر بالذقن عن الوجه، وقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٣] فقد عبر بالرقبة عن الجسد، وقد اختيرت الجلود، وخُصَّتْ بالسؤال كمندوبة وممثلة لسائر الحواس؛ لما تمتاز به عن غيرها من ميزات، أهمُّها خمسة، كما يلي:

١ـ إنها الأكبر، فهي تغطي سائر جسد الإنسان، وذكر بعض المفسرين ـ كالرازي ـ أن الجلود تشمل ثلاثةً من الحواس الخمس، هي: الذوق والشم واللمس.

٢ـ إن الجلود ألصق بجسد الإنسان، فهي الأَوْلى بالإنكار عليها، وعتابها.

٣ـ إنها صاحبة الدور الأكبر في مباشرة المعصية، والأكثر تأثراً وتأثيراً واستشعاراً.

٤ـ إنها هي التي ستذوق العذاب ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، فإنكار الشهادة عليها أولى.

٥ـ والأهمُّ من كلِّ ما سبق ما أثبتته الأبحاث العلمية الحديثة التي أُجريت على خلايا الجلد، وأظهرت احتواءَها على ذاكرةٍ، هي الأقوى من بين تلك التي اكْتُشِفَتْ لأعضاء أخرى في جسم الإنسان.

وبدأ اكتشاف الأمر عندما لاحظ الدكتور «كلارك أوتلي»، وهو طبيب مختصٌّ بزراعة الجلد، وقد قام بمئات عمليات زراعة الجلد لأشخاص احترقت جلودهم، أو تعرضت لتهتكٍ، أو تشوهٍ؛ لسبب أو لآخرَ؛ بأن الجسم لا يقبل الجلد الجديد، وأن معظم الحالات التي يُزْرَعُ لها جلدٌ تصاب فيما بعد بالسرطان، وبعد دراساتٍ وأبحاثٍ وتجاربَ تبيَّن له أن لخلايا الجلد ذاكرةً تختزن في سجلات خاصة بها ما تتعرض له من أحداث ومؤثرات، وهذه الذاكرة هي الأقوى من بين تلك الموجودة لأعضاء أخرى في الجسم؛ كالقلب مثلاً..، ويبقى الجلد محتفظاً بهذه الذاكرة مدةً طويلةً بعد موت الإنسان(١).

خامس عشر: وقفة مع إثبات الواو وإسقاطها:

جاء في سورة «ق»، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣]، وبعد بضع آيات قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ [ق: ٢٧].

فلماذا أُثبتت الواو في الآية الأولى، وأُسقطت في الثانية؟

القرين في الآية الأولى هو الملك المكلف بكتابة أعماله المراقب له، فهو يؤدي دوره كما طُلب منه، وكما كُلِّف به، دون زيادة أو نقصان، بتجرد ومهنية كاملة.

أما القرين في الآية الثانية، فهو «الصاحب» الذي زّيَّنَ له سوءَ عمله، وشجَّعه على المعاصي والآثام، فهو من هول الموقف يسارع في دفع التهمة عن نفسه، ويتبرأ من صاحبه، ويلقي بالمسؤولية عليه، ويعبر السياق عن ذلك أجمل تعبير بإسقاط الواو هنا في إشارة لسرعة تبرئه من صاحبه، ويثبتها في قول الملك «الرقيب» الذي يؤدي عمله دون أيِّ تأثر أو انحياز.

---

(١) موقع عبد الدائم الكحيل:
www.kaheel7.com/modules.php?name=News&file. ٢٦-٦-٢٠١٤م

سادس عشر: وقفة مع آيات من سورة الواقعة:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣- ٧٠].

نسب النصُّ الحراثة للناس؛ لأنه جهد بشري، وهو يعني شقَّ الأرض بالمحراث، وطرح البذر فيها، واستخدم لفظ ﴿**تزرعون**﴾؛ للدلالة على إنبات الزرع من البذر، وجَعْلِ الحَبِّ والسُّنبل فيه، رغم أن لفظ الزراعة أشمل من ذلك وأوسع، فجاء استخدامه هنا في تعبيرٍ جماليٍّ، يسند عملية الزراعة بمجملها لله وحده؛ ذلك أن العنصر الأساسي فيها هو الإنبات والإنماء، ومردُّه إلى الله وحده، ولا قيمةَ لأيِّ جهدٍ بشري ـ صغيراً كان أم كبيراً ـ ولا اعتبار له دونه، فهو يشدُّ انتباه «الزراع» الذين يظنون أن الزرع ينبت ويؤتي أكله بجهدهم، وعَرَقِ جبينهم، أنهم مخطئون، وأن الزرع ما كان لينبت وينمو ـ مهما بذلوا من جهد ـ إلا بتقدير الله وتدبيره.

وقد أضافت إشارة تنبيه وتحذير بقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، ولا يكون الحطام إلا بعد أن ينمو الزرع ويكبر، «ويهيج»، وتقترب ساعة الحصاد وجني الثمار، عندها تكون الفاجعة وخيبة الأمل أكبرَ وأشدَّ وَطْأً على النفس، وإنَّ أجمل تصوير لحال المزارع حينها ما وصفه القرآن، وعبَّر عنه بقوله ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾؛ أي تتعجبون فيما نزل بكم، وحلَّ برزقكم، وقيل: معنى ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: تندمون، وقيل: تلاومون، وأحسب أن اللفظ يشمل هذه المعانيَ مجتمعة، ويؤكِّد ذلك قولهم: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ متحملون خسارة مادية فادحة، وقوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أيْ من الرزق والخير بهلاكه.

ومن الحديث عن الطعام ينتقل السياق للحديث عن الشراب: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ

﴿ٱلَّذِى تَشۡرَبُونَ﴾، واقتصر السياق على ذكر شرب الماء مع كثرة منافعه واستخداماته؛ لأنه الأهم، ويلامس حاجة الإنسان المباشرة والملحة له.

﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾، ولا يملك الإنسان إلا أن يُقِرَّ بقدرة الله وفضله ـ في ذلك ـ دون غيره، وعندما يُرْجِعون أمر «المطر» لله، يبين الله قدرته في أن يحيل هذا الماء العذب إلى ماءٍ لا يصلح للشرب ولا للزراعة، ولا ينتفع به ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجَا﴾، ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ أيْ فهلَّا تشكرون الله على هذه النعمة الظاهرة البينة.

ونلاحظ أن لام التأكيد قد استخدمت في قوله تعالى: ﴿لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمَا﴾ فيما يخصُّ الزرع، ولم تستخدم فيما يخصُّ الماء ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجَا﴾، وقد علَّق ابن القيم على ذلك بقوله: «وإنما جاءت كذلك؛ لأن جعل الماء العذب ملحاً ليس بعظيم، ولأنه إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة والمرارة، فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد، فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق لأمره، وتقرير إيجاده»[1].

وعلَّل بعض العلماء استخدام لام التأكيد في الزرع، وعدم استخدامها في الماء، بقولهم: إن الزراعة أمر يمارسونه بأيديهم، ويعتقدون أنهم من يقوم بفعل إنباته، فاحتاج استخدامَ لام التأكيد، أما «المطر» فهم يسلِّمون أنه خارج عن سيطرتهم، وليس لهم يَدٌ فيه، فلم يستدعِ الأمرُ لامَ التأكيد بأن الله قادر على أن يجعله «أجاجاً» مالحاً. والله أعلم.

سابع عشر: وقفة مع قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) الفوائد المشوق في علوم القرآن وعلم البيان، ص٢٠٨.

تثير هذه الآية الكريمة موضوعاً غاية في الأهمية، يتعلق بالقلب وحمله على الخشوع، قبل أن يطول عليه الأمد، فيقسو ويتحجَّر، إنها حالةٌ فوق الإيمان، محورها القلوب، مدعوٌّ لها المؤمنون، والمؤمنون فقط؛ لأنه لا يبلغها إلا هم وحتى يخشع قلبك لذكر الله لا بد أن تكون مؤمناً به أولاً، وتبرز أهمية خشوع القلب نظراً لما يترتب عليها من أثر على سلوك المؤمن وتصرفاته من تهذيب للنفس، وتحسين للأخلاق، وضبط للسلوك والتصرفات.

«إن هذا القلب البشري سريع التقلب، سريع النسيان، وهو يشفُّ ويشرق فيفيض بالنور، ويَرِقُّ كالشعاع، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر؛ تبلَّد وقسا، وانطمست إشراقته، وأظلم وأعتم! فلا بُدَّ من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع، ولا بد من الطَّرق عليه حتى يرقَّ ويشفَّ، ولا بد من اليقظة الدائمة؛ كي لا يصيبه التبلد والقساوة»[1].

وقوله ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾: تساؤل يحمل مع العتاب للمؤمنين الحثَّ والحضَّ، ويفيد أن المخاطبين من المؤمنين قد أخذتهم الغفلة، ومشاغل الحياة، وفِتَنُها ـ وإن لوهلة ـ حتى أوشك الدين أن يصبح عندهم مجردَ عادةٍ تُؤدى، دون التفاعل القلبي المطلوب معها، فجاء هذا التنبيه القرآني طرقاً للقلوب، وتصحيحاً للمسار، محذراً المؤمنين من حال أهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وفسق أكثرهم، والمؤمن إن تهاون في حمل قلبه على الخشوع لذكر الله، وما نزل من الحق، وبقي الإيمان عنده مقتصراً على الاعتقاد الفكري، وتأدية الشعائر الدينية بصورة روتينية جافَّة، لا رُوحَ فيها ولا حياة؛ صعب عليه لاحقاً تداركُ الأمر، وتليين القلب.

وانظر إلى دقة التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، فالذي يعايش أهل الكتاب من يهودٍ

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٤٨٩.

ونصارى، يجد حقّاً وصدقاً أن أكثرهم فاسقون، الدين عند المتدينين منهم ـ فضلاً عن غير المتدينين ـ ظاهريٌّ شكليّ، أما القلوب فهي خامدة خاوية جافَّة جامدة.

فلا تعجبْ إذا علمتَ أن نسبة الفساد الأخلاقي والمالي، في أوساط المتدينين اليهود هي أكبر بكثير منها في أوساط العلمانيين غير المتدينين!

فالمتدينون اليهود هم الأكثر ارتياداً على دور البغاء، والأكثر معاقرة للخمور، وينتشر بينهم الشذوذ الجنسي بشكل كبير، وهم الأكثر تعاملاً بالرشى، والتهريب، وسرقة الأموال وتبييضها، لا ينازعهم في ذلك منازع!

ذلك أن الدين عند هؤلاء مجرد طقوسٍ وشعائرَ وصلواتٍ تُتلى باللسان، يهتزُّ معها الرأس، دون أن يهتزَّ لها القلب أو يتأثر.

حتى الذين يَدَّعون محافظتهم على حرمة السبت، وجدوا من فتاوى الحاخامات وأساليبهم، ما لم يُبْقِ شيئاً يحافظ عليه!

أذكر من **باب الطرفة**، أنني في أحد سجون الاحتلال، أعددت يوماً طبقاً من الحلوى، ووضعته في البَرَاد خارج الغرفة، وطلبت من أحد السجانين اليهود ـ ليلاً ـ أن يحضره لي، فرفض متذرعاً أننا في أيام عيد الفصح، ويحظر عليه حمل شيء فيه «خمير»..، فوقعت عيني على قطعة كرتون، مختوم عليها باللغة العبرية مباح في الفصح، فقلت له: إن أعطيتك هذه القطعة من الكرتون لتحمل الطبق بها؛ أيكون هذا ممكناً؟ قال: نعم، فأعطيته قطعة الكرتون، فحمل الطبق بها، وأحضره لي.

وحتى لا يحصل للمؤمنين ما حصل لأهل الكتاب، الذين طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم؛ لا بد ـ حتى يكتمل إيمان المؤمن ـ من تكامل التفاعل بين القلب والعقل، وسائر الجوارح.

والزمن عنصر فاعل مؤثر، لا ينبغي تجاهله، والغفلة عنه.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ هذه الكلمة حثٌّ وإطماع، وجدالٍ وحجة، وهي في الآية تصرح أن خشوع القلب الذي تلك صفته هو كمال للإيمان، وأن وقت هذا الخشوع هو كمال العمر، وكيف يعرف المؤمن أنه سيتأتى له أن يعيش ساعة أو ما دونها، إذن فالكلمة صارخة تقول: الآن الآن قبل أن لا يكون آن، أي: البدار البدار ما دمت في نَفَسٍ من العمر؛ فإن لحظة بعد الآن لا يضمنها الحي، وإذا انتهى وقت الإنسان انتهى زمن عمله، فيبقى الأبد كلُّه على ما هو عليه، ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذي يدرك الحقيقة، وإن هو إلا اللحظة الراهنة من عمره التي هي الآن، فانظر ويحك وقد جُعِلَ الأبد في يدك، وانظر كيف تصنع به»[١].

ثامن عشر: وقفة مع الفرق بين كلمتي «عمل» و«فعل»

كثر وتباين ما قاله العلماء والمفسرون في الفرق بين لفظي «عمل» و«فعل» فيما اتفق معظمهم على القول بالتباين وعدم التطابق.

وبعد أن وقفت مليًّا متأملاً جميع المواضع التي ورد فيها هذان الفعلان خلصتُ إلى نتيجة، مفادها:

إن لفظ «عمل» يُستخدم في القرآن الكريم للدلالة على قليل العمل ومتواضعه ومعتدله «**غير المتميز بميزات خاصة**».

أما لفظ «فعل»؛ فإنه يستخدم في القرآن الكريم للدلالة على كبير العمل، وكثيره ومعقَّده، وشديده، وسريعه، وقويه؛ أيْ: «**كل عملٍ ممَّيز**».

وسأعرض فيما يأتي أمثلةً من القرآن الكريم تؤكد هذه القاعدة وتُثبتها، مركِّزاً على مواضعَ أشكلت على الكثيرين، وقد تبدو للوهلة الأولى غير منسجمة مع ما ذهبنا إليه من طرح، وأبرزها أربعة للفعل عَمِل، وتسع للفعل فَعَل:

---

(١) الرافعي، مصطفى صادق، وحي القلم، ١/ ٢١٧، دار الكتاب العربي/ بيروت.

أ ـ أمثلة الفعل عمل:

١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]. فاستخدم لفظ «عمل» هنا؛ لأن السياق يتحدث عن العمل بشكلٍ إجمالي «غير المخصوص منه، المهم أن يكون صالحاً».

٢ ـ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

السياق في هذه الآية يشير إلى نوع العمل: ﴿عَمِلَ سَيِّئَةً﴾، و﴿عَمِلَ صَٰلِحًا﴾، وليس فيه تحديد لحجم العمل وميزاته.

٣ ـ ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

قد يشكل على بعض الناس فهمُ لماذا استخدام لفظ «عمل» في هذه الآية، لكنْ إذا دقَّقنا النظر وجدنا أن العمل منسوب إلى ﴿ٱلْجِنِّ﴾، وبالتالي فهو بالنسبة لهم، ولما آتاهم الله من قدراتٍ تفوق قدرة البشر عملٌ عاديٌ يسير، لا يحتاج كثيراً من الجهد والمشقة، فما هو في نظرنا عظيم كبير، هو عند «الجِنَّة» سهلٌ يسير، وقد أثبت القرآن الكريم القدرة الفائقة للجن في قصة عرش بلقيس في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]، وبالتالي يتضح لنا أن استخدام لفظ «عمل» في هذا السياق هو الأنسب، والله أعلم.

٤ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١].

وهذا نظير ذاك، فالعمل هنا منسوب إلى الله سبحانه وتعالى، الذي ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

ب ـ أمثلة الفعل فعل وهاك تسعةً منها، كما يلي:

١ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

استخدم لفظ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ مع تفريق الدين لعظم هذا الأمر.

٢ـ ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

استخدم لفظ ﴿فَعَلُواْ﴾ مع الفاحشة، وهي المستقبح أو المستفحش من كل قول أو فعل.

٣ـ ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

استخدم لفظ فعل في هذه الآية؛ للإشارة إلى عظم الفعل الذي فعله الله بهم، وجعله عبرةً لغيرهم من الأمم، فبقي أثره ظاهراً بيناً.

٤ـ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

إشارة إلى سرعة تنفيذ ما يؤمرون به ودقته.

٥ـ ﴿...وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٢].

استخدم في هذه الآية لفظ «فعلته» على لسان العبد الصالح؛ لأن ما قام به من خرقٍ للسفينة، وقتلٍ للغلام، وإقامةٍ للجدار، تُعَدُّ من الأفعال الكبيرة المميزة.

٦ـ ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

السياق هنا يحمل إشارة إلى أن المقصود الإكثار والمداومة على «فعل الخيرات»، فهم أنبياء، وما هو مطلوب منهم أكثر مما هو مطلوب من عامة الناس.

٧ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤].

السياق يتحدث عن صفات المؤمنين الذين استحقُّوا الفلاح، ويلزم لذلك أن يكون أداؤهم للزكاة دائماً كاملاً، الأمر الذي يتناسب معه لفظ «فعل».

٨ـ ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ * قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ١٩- ٢٠].

الفعلة التي ذكرها فرعون هنا هي قتل موسى عليه السلام للرجل، عندما استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوِّه، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾، فهي فعلة كبيرة في نظر فرعون استخدم لإظهار عِظَمِها لفظ ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾، وكذلك فإن موسى عليه السلام لم يستصغرْ فعلته، فهو الذي قال عنها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾، فاستخدم على لسانه أيضاً لفظ ﴿فَعَلۡتُهَآ﴾؛ لأن القتل أمرٌ عظيمٌ عند الله، وعند الناس أجمعين، فضلاً عن أنه قد يؤدي إلى إقدام الفراعنة على إحداث مجزرة في بني إسرائيل المستضعفين.

٩ـ ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

استخدام صيغة المبالغة مع الفعل تدلُّ على التكثير والتعظيم، فالله يفعل ما يشاء وقتما شاء، كيفما شاء.

تاسع عشر: وقفة مع آيات «الإنس والجن» في القرآن الكريم:

إذا تتبعنا الآياتِ التي ذُكر فيها «الإنس والجن» مُتتابِعَيْنِ، وجدنا أن عددها اثنتا عشرة آية، تقدم الإنس على الجن في ثلاث آيات، وتقدم الجن على الإنس في تسع

آيات، بينما ورد لفظ الجِنة والناس في ثلاث مواضع، وسنجد حكمة وسبباً وراء كل حالة:

أ ـ الحالات التي تقدم فيها ذكر الإنس على الجن:

١ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

تقدم شياطين الإنس على شياطين الجن في هذه الآية؛ لأن عداءهم للأنبياء أظهر وأكبر، ولأن رسالة الأنبياء في الأساس للإنس، وبالتالي فإن العداءَ والمعاندة، ومقاومةَ الدعوة، والكيدَ لها، هو في معظمه من الإنس.

٢ ـ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

تقدم الإنس على الجن في هذه الآية؛ لأنهم أهل اللغة والفصاحة، والبيان والبلاغة.

٣ ـ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن: ٥].

تقدم الإنس على الجن هنا؛ لأنهم أول المكذبين، والمفترين على الله، فكفرُ إبليسَ والجنِّ ـ رغم أنه سبق كفر الإنس ـ إلا أنه كان كفرَ عنادٍ واستكبار، فأما الإنس؛ فإن كفرهم كفر تكذيبٍ للرسل، وإنكارٍ للرسالة. والإنس هم من جعل مع الله آلهة أخرى، ونسبوا له الولد والزوجة.

ب ـ الحالات التي تقدم فيها الجن على الإنس:

١ ـ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

تقدمت الجن على الإنس هنا؛ لأن أمة الجن سبقت أمة الإنس في الخلق، وقد اختلف المفسرون: هل جاء الجنَّ رسلٌ خاصُّون بهم أم أن رسل الإنس هم رسلهم أيضاً؟ وأعتقد أن ظاهر الآية يشير إلى أن للجن رسلاً منهم، كما للإنس رسل من جنسهم، ومما يستأنس به لذلك قوله تعالى عن الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

٢ـ ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

تقدمتِ الجن على الإنس في هذه الآية كما في الآية التي سبقتها؛ لأن أمة الجن سبقت أمة الإنس في الوجود

٣ـ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

تقدمت الجن على الإنس هنا؛ لأنهم أكثر أهل النار، والعياذ بالله.

٤ـ ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

قُدِّم جنود الجن على جنود الإنس؛ لأنهم الأقدر والأقوى.

٥ـ ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

تقدمت الجن على الإنس هنا أيضاً؛ لأنها الأسبق خلقاً.

٦ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

قدمت الجن هنا؛ لأن إبليس، وهو من الجن، أول من وسوس لآدم وبنيه، وأضل منهم خلقاً كثيراً. ثم جاء بعده الضالُّون المُضِلُّون من الإنس.

٧ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨].

وقُدِّمتِ الجن هنا أيضاً؛ لأنهم الأسبق خلقاً.

٨ ـ ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهنا أيضاً؛ لأن خلق الجن سبق خلق الإنس.

٩ـ ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وتقدمتِ الجنُّ على الإنس في هذه الآية؛ لأن سياقها يتحدث عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض، ولا شكَّ أن الجن يمتلكون قدرات خارقة تفوق قدرات الإنس فاقتضى تقديمهم.

جـ ـ أما لفظا «الجِنة والناس» فوردا متتابعينِ في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم، وتقدمت فيها «الجنة» على «الناس»، وهذه المواضع هي:

١ ـ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

٢ ـ ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

٣ـ ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥-٦]،

وتقدمت الجِنة على الناس في الآيتين من سورتي هود و السجدة في إشارة إلى أن أكثر أهل النار منهم، ولأنهم أول من كفر، أما في الآية من سورة الناس فإن الجِنة تقدمت على الناس؛ لأن شياطين الجن يوسوسون لجنسهم وللناس، أما شياطين الإنس فلا يوسوسون إلا لجنسهم، ولأن وسوسة الجن سبقت وسوسة شياطين الإنس؛ إذ بدأت بوسوسة إبليس لآدم، ولأن شيطان الجن خفيٌّ «**يجري من ابن آدمَ مجرى الدم**»، فلا تشعر بوسوسته وكيده، لذلك تَمَّ تقديمهم، والله أعلم.

الوقفة عشرون: وقفة تأملية مع اسمي الله عز وجل: «الرؤوف الرحيم»:

تباين ما قاله المفسرون والعلماء في الفرق في المعنى بين «**الـرؤوف**» و«**الرحيم**»، وفي سبب تقدم «**الرؤوف**» دائما على «**الرحيم**».

من ذلك قولهم: الرأفة شدة الرحمة، وهي أبلغ من الرحمة، والرأفة نهاية الرحمة، والرأفة متعلقة بالوقاية، فيما الرحمة متعلقة بالعلاج، والرحمة مصحوبة دائما بالألم.. إلى غير ذلك من أقوال.

وقد أعجبني رأيٌ نسبه الدكتور راتب النابلسي في كتابه «موسوعة أسماء الله الحسنى» لأحد العلماء دون أن يُسَمِّيَه؛ حيث يقول: «واعلم أنه تعالى قدم الرؤوف على الرحيم، والرأفة على الرحمة.. وهذا يقتضي وقوع الفرق بينهما.

والفرق هو: أن الرحيم في المشاهَد إنما يحصل لمعنى في المرحوم من فاقةٍ وضعفٍ وحاجة، والرأفة تطلق عندما تحصل الرحمة في الفاعل من شفقة على المرحوم، فالباعث في الرحمة هو المرحوم، وأما الباعث بالرأفة فهو الرحيم، فالانطلاق في الرأفة من الله، وفي الرحمة من العبد، وهذا هو الفرق»[1].

(١) النابلسي، محمد راتب، موسوعة أسماء الله الحسنى، ٢/ ١٠٦٩، ط٣، ١٤٢٥هـ، دار المكتبي ـ دمشق.

والذي أودُّ التأكيد عليه هو أن الفرق بين «رؤوف» و «رحيم» واضح بَيِّنٌ، وسهلٌ يسير.. فالرأفة عند العباد حالة شعورية مكانها القلب، غير مقترنة بفعل، أما الرحمة فهي مقترنة دائماً بالفعل.

فإنك إذا رحمت فقيراً أو مسكيناً، فهذا يعني بالضرورة تقديمَك المساعدة له؛ أما «الرأفة»: فهي تعني الإشفاق عليه، والتعاطف معه، لا أكثر..، وقد نَسَبَ القرآن حالتي «الرأفة» و «الرحمة» لأتباع المسيح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، أما في حق الله تعالى **فالرأفة**: هي إشفاق الله على عباده، وعدم رضاه أن يمسَّهم السوء والضر، أو أن يسلكوا سبيل المعاصي والكفر ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

و«**الرحمة**»: إعانتهم، ودفع الضُّرِّ عنهم والبلاء، والتجاوز عن سيئاتهم، ومغفرة ذنوبهم، والتكرم عليهم، والإحسان إليهم.. ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وبذلك كان من الطبيعي أن تتقدم الرأفة دائماً على الرحمة، وتقترن بها..، إذِ الشعور والتعاطف يسبق الفعل، ويقدِّمه..، بمعنى: أشفق عليه، فرحمه.. والله أعلم.

الوقفة الحادية والعشرون: وقفة تأملية: مع الخطاب العام والخاص:

استوقفني وأنا أتدبر آيَ القرآن الكريم اقترانُ خطاب القرآن للناس بالتقوى بلفظ ﴿رَبَّكُمُ﴾: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

فيما اقترن الخطاب للمؤمنين بالتقوى دائماً بلفظ «الله» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب:٧٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨].

فما سِرُّ ذلك؟

لفظ «**الرب**» يطلق على: الخالق المالك الرازق المعبود بحقٍّ، وتوحيد الربوبية معناه: «نفي الشريك عنه تعالى في صفات الربوبية الحقَّة، والتي فيها الخلق والرزق، والملك والتدبير الذي من لوازمه الإماتة والإحياء، والعطاء والمنع، والضر والنفع، والإعزاز والإذلال»[(١)]، ولأن الخطاب بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب عام يشمل المؤمنين، وأهلَ الكتاب، والمشركين، والخلل عند أكثر هؤلاء في توحيد الربوبية، وليس في توحيد الألوهية، اقتضى أن يقترن الخطاب بدعوتهم للتقوى بلفظ ﴿رَبَّكُمُ﴾؛ لأن تقواهم لن تستقيم إلا إذا استقام توحيد ربوبيتهم.

أما المؤمنون فلا خلل عندهم في توحيد الربوبية، والخطاب بدعوتهم للتقوى جاء لحثِّهم على مزيدٍ منها، وعلى الاستقامة، وتصويب المسار وتسديده، كما في الآيات السابقة وغيرها.

ومن مفاهيم توحيد الألوهية «تعلق القلب بالرب تعالى خوفاً ورجاء، ورهبة وطمعاً، كما هو إسلام الوجه لله تعالى، ووقف الحياة كلِّها عليه؛ فلا شيءَ للعبد هو لغير الله تعالى»[(٢)]، ومن هنا اقترن الخطاب للمؤمنين بكلمة «**تقوى الله**».

---

(١) الجزائري، أبو بكر، عقيدة المؤمن، ص ٥٤، طبعة دار العقيدة ـ القاهرة، نشر مكتبة دار العلوم والحكم.

(٢) عقيدة المؤمن ص٦١.

والله أعلم.

الوقفة الثانية والعشرون: وقفة تأملية، مع التقديم والتأخير:

جاء في سورة القصص قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

فنلاحظ أن لفظ ﴿رَجُلٌ﴾ قد تقدَّم في هذه الآية على قوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ في حين جاء عكس ذلك في سورة «يس»: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

فما سِرُّ تقدُّم ﴿رَجُلٌ﴾ في «القصص» وتقدم ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ في «يس»؟

إنَّ السياق في سورة القصص « يدور حول قصة موسى عليه السلام، وقتله للرجل من عدوه، ووصفت الآيات حال موسى عليه السلام بعد ذلك ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ فكان يكفي موسى عليه السلام مع هذه الحالة أن يأتيه أيُّ نذير؛ كي يصدِّقَه ويخرج من المدينة؛ لينجو بنفسه من القوم الظالمين ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

فكان من المناسب أن يتقدم لفظ ﴿رَجُلٌ﴾ لأن الموطن لا يحتاج إلى كثير دلائل لتأكيد صدقه.

فيما الحديث في سورة «يس» يدور حول الرسل والرسالة، ويحتاج «الرجل» النذير إلى قرائنَ تشير إلى صدقه، خاصة من قوم مكذِّبين ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۞ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٤- ١٥].

فاقتضى تقديم ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ لأن في ذلك إشارة إلى المشقة والعناء الذي تجهَّمه هذا الرجل النذير.. لعل ذلك شفيعٌ له كي يتم تصديقه.. وانظر في سيرة الرسول ﷺ، كيف أنه لما قال لقريش: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تُغِيرَ عليكم، صدقتموني ؟**» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، لكنه لما قال لهم: «فأني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1] كذبوه وأعرضوا عنه.

لطيفة :

أشير إلى أن رقم الآية من سورة «القصص» هو **٢٠** وتقع في الجزء العشرين، ورقم الآية التي من سورة «يس» هو **٢٠** أيضاً، وعدد حروف قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ و ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ هو **٢٠** أيضاً!

وهذه اللفتة أقدمها للمهتمين بالبحث في هذا المضمار؛ علَّهم يكتشفون لنا سِرَّاً جديداً من أسرار هذا الكتاب المبين، الذي لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي عِبَرُه.

الوقفة الثالثة والعشرون: وقفة تأملية مع قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أيْ أرادوا أن يؤمنوا ﴿يُخْرِجُهُم﴾: يلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأييده من الكفر إلى الإيمان.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أيْ: صمَّموا على الكفر، أَمْرُهُم بعكس ذلك، أو أن الله وليُّ المؤمنين، يخرجهم من الشبه في الدين إن وقعت لهم ـ بما يهديهم له من حَلِّها ويوفقهم إليه، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين، والذين كفروا أولياؤهم الشياطين يخرجونهم من

(١) انظر السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ١٦٦.

نور البينات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة، وقال الشوكاني في فتح القدير «كلاهما قريبٌ من ذلك، فيما قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى أنه يهدي من اتَّبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وَلِيُّهم الشياطين، تزيِّن لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك.

وإذا أمعنا النظر في كلمات هذه الآية الكريمة؛ وجدنا أن لفظ ـ ظلمات ـ قد جاء بصيغة الجمع، ولفظ «يخرج» جاء بصيغة المضارع التي تفيد الاستمرارية، ولا أرى من سبب يدفعنا لأن نحصر معنى ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في الكفر والشكِّ والضلال، وأن نَقْصُر ﴿ٱلنُّورِ﴾ على الإيمان واليقين فقط، ثم نبحث فيما بعد عن تأويلٍ نصرف فيه لفظ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عن معناه الظاهر.

فالأَوْلى إذن أن يُحمل لفظ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، ولفظ ﴿ٱلنُّورِ﴾، على معناهما العام الشامل، فيكون تفسير الآية كالتالي:

إن الله وليُّ الذين آمنوا، يخرجهم دائما وباستمرارٍ من ظلمات الجهل والخطأ، والسوء والمحن، والفتن والكروب، والمصائب والشدائد، والمعاصي، إلى «نور» الإيمان والهداية، والحقِّ والرشاد، والسلامة والنجاة، والعلم، وسلامة الصدر ونقاء السريرة.

ويؤكد هذا المعنى الشامل قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

- ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من كلِّ موقفِ خير، ومن كلِّ فعلٍ أو فكرٍ طيب، إلى كلِّ ما هو مسيءٌ ومضرٌّ أو معيب ومشين.

وهناك تفسير آخر لا يقل وجاهة عما ذكرناه في الآية:

فإنه يمكن أن يكون المقصود بلفظ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ التي يخرج الله المؤمنين منها، هو المحنَ والفتنَ والابتلاءاتِ التي يتعرض لها المؤمن في الحياة الدنيا، فالدنيا كما أخبر الرسول ﷺ «**سجنُ المؤمن وجنةُ الكافر**»، ولا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه، وفي الآخرة.. ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

أما الكافرون فيخرجهم أولياؤهم الطواغيت من النور إلى ظلمات نار جهنم ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

الوقفة الرابعة والعشرون: وقفة تأملية مع قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦- ٣٧].

لو قارنا هاتين الآيتين الكريمتين بالآيتين المتشابهتين في سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١١- ١١٢].

لوجدنا اختلافين اثنين، هما:

١ـ استخدام لفظ ﴿وَٱبْعَثْ﴾ في الشعراء و﴿وَأَرْسِلْ﴾ في الأعراف.

٢ـ استخدام لفظ ﴿سَحَّارٍ﴾ في الشعراء و﴿سَٰحِرٍ﴾ في الأعراف.

فما سِرُّ هذا الاختلاف؟

إذا ما دقَّقنا النظر في سياق الآيات التي سبقت هاتين الآيتين من سورة الشعراء، نجد أن الحوار بين فرعون وموسى عليه السلام جاء مطوَّلاً ومفصَّلاً، وامتاز بالحدَّة والتحدي، والتهديد والوعيد، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ ، فيما خلت آيات سورة الأعراف من ذلك، وجاء ذكر القصة مقتضباً بعض الشيء.

وبما أن لفظ ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾ أقوى، ويحمل من معاني الشدة، ويعبر عنها أكثر من لفظ ﴿وَأَرۡسِلۡ﴾، ولفظ ﴿سَحَّارٍ﴾ أيضاً، الذي هو صيغة مبالغة، أقوى بلا شك من لفظ ﴿سَٰحِرٍ﴾؛ فإنه قد اسْتُعِيضَ بهما في الآيتين من سورة الشعراء؛ انسجاماً وتناسباً مع طبيعة سياق آيات سورة الشعراء؛ إضافةً إلى أنه في سورة الأعراف نُسِبَ وصف موسى عليه السلام: ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ إلى الملأ من قوم فرعون: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩].

ثم إن السياق لم يُظْهِرْ طلب فرعون الصريح الرأيَ من الملأ، وإنما نَسَبَ طلب المشورة والرأي إلى الملأ، بمعنى أن بعضهم قال لبعض: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾.

أما في سورة الشعراء؛ فإن القائل هو فرعون: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤- ٣٥].

وعندما يطلب فرعون الطاغية الرأي من حاشيته؛ فإنهم بلا شك سيكونون شديدي الحرص على إرضائه ، وإظهار إخلاصهم له؛ لذا جاء سياق الآيتين بصيغٍ تناسب ذلك وتُظْهِرُه.

والله أعلم.

الوقفة الخامسة والعشرون: وقفة مع قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

نلاحظ أن الخطاب في هذه الآية قد جاء بصيغة المثنى، مثبتاً رسالة هارون عليه السلام، فيما جاء الخطاب في سورة الشعراء بصيغة المفرد: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦].

ويُستفاد من تنوع الخطاب الحصولُ على معلوماتٍ إضافية، فهو في سورة «طه» يثبت رسالة هارون عليه السلام ، فيما يبين لنا في سورة الشعراء أن موسى وهارون عليهما السلام يحملان ذاتَ الرسالة، فهما رسولان برسالة واحدة.

السؤال هنا: لماذا جاءت صيغة التثنية ﴿رَسُولَا﴾ في سورة طه، وجاءت صيغة المفرد ﴿رَسُولُ﴾ في سورة الشعراء؟

أعتقد أن الجواب يكمن في أن رسالة هارون سبق وأُثْبِتَتْ في سورة الشعراء على لسان موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾، فلم تكن حاجةٌ لإعادة التأكيد على رسالته.

أما في سورة طه؛ فإنه قد جاء على لسان موسى عليه السلام دعاؤه: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٢٩- ٣٢].

وحتى لا يلتبس الأمر على بعض الناس، ويظنوا أن هارون عليه السلام لم يكن نبياً، وإنما هو مساعدٌ أو معاونٌ لموسى؛ أيْ: «وزير» ليس إلا؛ جاء السياق لاحقاً بصيغةٍ قاطعةٍ بَيِّنةٍ تُثبت رسالة هارون عليه السلام ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والله أعلم.

* * *

المبحث التاسع
وقفة تأملية مع حروف مطالع السور

حار المفسرون واختلفوا في تأويل الحروف التي في أوائل عدد من سور القرآن، ومع أنهم أجمعوا القول على أن «الله أعلم بمرادها»، إلا أنهم لم يتوقفوا يوماً عن البحث، والتدقيق، والمحاولة الدؤوبة؛ لتأويلها وكشف أسرارها.

ومما قيل في هذه الحروف: «أن آلم وآلمص وآلر وكهيعص وق ويس ون» حروف المعجم، ذُكرت لتدلَّ على أن هذا القرآن مؤلف من هذه الحروف المقطعة التي هي حروف أ. ب. ت. ث، فجاء بعضها مقطعاً، وجاء تمامها مؤلفاً؛ ليدل القوم الذين نزل عليهم القرآن أنه بحروفهم التي يعقلونها لا ريبَ فيه.

ويُروى عن الشعبي أنه قال: لله في كلِّ كتاب سِرٌّ، وسرُّه في القرآن حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور.

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ثلاثة أوجه في الم وما أشبهها، فوجه منها أنه قال: أقسم الله بهذه الحروف أن هذا الكتاب الّذي أنزل على محمد ﷺ لا شكَّ فيه، والقول الثاني عنه أن: ﴿الٓر﴾، و﴿حمٓ﴾، و﴿نٓ﴾، اسم للرحمن عزّ وجلّ مقطوع في اللفظ، موصول في المعنى، والثالث عنه أنّه قال: ﴿الٓمٓ﴾ معناه: أنا الله أعلم، و ﴿الٓر﴾ معناه: أنا الله أرى، و﴿الٓمٓصٓ﴾ معناه: أنا الله أعلم وأفصل و ﴿الٓمٓر﴾ معناه: أنا الله أعلم وأرى[1].

---

(١) الزجاج، إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ١/ ٥٥- ٥٧، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، عالم الكتب ـ بيروت.

ومن أبرز من قدم قولاً لافتاً في هذه الحروف الزمخشري في الكشاف، حيث قال: واعلم أنه إذا تأملتَ ما أراده الله عزَّ سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء، وجدتَها نصف أسامي حروف المعجم أربعةَ عشَر سواء: وهي الألف واللام والميم، والصاد والراء والكاف، والهاء والياء والعين، والطاء والسين والحاء، والقاف والنون، في تسع وعشرين سورةً على عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت في هذه الأربعةَ عشرَ وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، وبيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفَها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء، ومن المجهورة نصفها، ومن الشديدة نصفها، ومن الرخوة نصفها، ومن المستعلية نصفها، ومن المنخفضة نصفها، ومن حروف القلقلة نصفها.

لكن هذه اللفتات اللافتة من الزمخشري على أهميتها لا يمكن اعتبارها تأويلاً لهذه الحروف، وإنما هي شاهد على عجيبة تضاف لعجائب القرآن التي لا تنقضي.

ومع أني أتفق مع القائلين بأن: «الله أعلم بمرادها»؛ إلا أنني أعتقد أن الله ما كان ليضع هذه الحروف في كتابه الكريم كي تُقرأ فقط، دون أن تُعرف دلالتها، والمراد منها، وحتى وإن لم يصل أحدٌ إلى رأي جازم فصلٍ فيها، فلا ينبغي إغلاق باب البحث والمحاولة، التي يجب أن تُضْبَطَ، وتُبنى على العقل والمنطق والتحليل السليم، وقد استوقفتْني هذه الحروف ملياً، واستحوذتْ طويلاً على اهتمامي وتفكيري، إلى أن شعرت يوماً وأنا أتأملها، كأنما تقول لي: **أينما وقعت عيناك على حرف من هذه الحروف في أي كلمة من كلمات السورة، فدقق وأمعن النظر، وتفكر وتدبر، فستجد أهمَّ موضوعاتِ السورة، وعبرَها وأسرارَها مختصرة فيها.**

من هذه القاعدة انطلقت في محاولتي فهم مدلولات هذه الحروف، فقمت

بتقسيم تلك السورة إلى عشر مجموعات، وهي بالمناسبة ثمانٍ وعشرون سورة بعدد حروف اللغة العربية، وذلك إذا استثنيا سورة طه؛ حيث أرجح الرأي القائل بأن معنى طه هو: «يا رجل» وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين.

المجموعة الأولى:

وتضم سورتي البقرة، وآل عمران.

حيث تبدآن بالحروف الثلاثة الم، ومعلوم أن البقرة وآل عمران يجمعهما إضافة لحروف الافتتاح الكثير، فهما الزهراوان؛ فعن أبي أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «اقرأوا الزهراوين، البقرة وسورة آل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ تحاجان عن أصحابهما»(١).

ولا يخفى على أحد ذلك الترابط والتكامل بين موضوعات السورتين وبيانه كما يلي:

إن أعظم آية في القرآن الكريم، وهي آية الكرسي تقع في سورة البقرة، فيما تفتتح سورة آل عمران بعد الم بمطلع آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ في تركيز واضح في كلتا السورتين على توحيد الألوهية، أضف إلى ذلك أن أعظم شهادة بوحدانية الله جاءت في سورة آل عمران في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

إذن: أعظم آية في سورة البقرة، وتفتتح بمطلعها سورة آل عمران، وأعظم شهادة في آل عمران، وهما تتحدثان عن توحيد الألوهية، وهذا ـ إضافة إلى ما سبق ـ يدفعنا إلى القول بأن ال التي في بداية السورتين تعود إلى لفظ الجلالة الله وتشيران إلى توحيد الألوهية، أما الحرف م فأعتقد أنها في سورة البقرة تعود إلى موسى عليه

(١) صحيح مسلم ١/ ٥٥٣.

السلام، وفي آل عمران إلى محمد عليه الصلاة والسلام. وبيان ذلك: أن موسى ذكر في البقرة ١٣ مرة، وحاز الحديث عنه وعن قومه المساحة الأوسع من سورة البقرة، حتى إن السورة سُمِّيَت باسم البقرة التي أُمِرَ بنو إسرائيل بذبحها.

أما سورة آل عمران: فقد ذكر فيها اسم الرسول محمد ﷺ، وتحدثت آياتها مطولاً عن أمته، بما يوازي ما ذكر في البقرة عن موسى وبني إسرائيل، فانظر إلى هذا الترابط والتكامل بين السورتين.

وخلاصة القول: إن حروف الافتتاح في سورتي البقرة وآل عمران تختصران أهم موضوعات السورتين: البقرة: توحيد الله، وحال موسى عليه السلام مع قومه، مع ذكرٍ لأعظم موقعة في تاريخ بني إسرائيل بين طالوت وجالوت.

وآل عمران: توحيد الله، وحال محمد ﷺ مع قومه، وتميز أمة الإسلام عن غيرها من الأمم اليهود والنصارى، مع تركيز على دروس الهزيمة والنصر في غزوة أحد.

وهذا لا يمنع أن تشير الميم في آل عمران ـ أيضاً ـ إلى «مريم» عليها السلام، فقد يشير الحرف الواحد لأكثر من كلمة، ولأكثر من موضوع.

وبالتالي؛ فإن هذه الحروف تعتبر «مفتاح السورة» تسهل على القارئ فهم السورة، والخروج بالعبر والعظات واللطائف منها، فالمطلوب من قارئ القرآن البحثُ عن هذه الحروف في كلمات السورة، والتدقيق وإمعان النظر؛ للخروج بالعبرة والفكرة، والموعظة الحسنة، والله أعلم.

المجموعة الثانية:

سورة الأعراف، وتبدأ بالحرف: ﴿الٓمٓصٓ﴾:

وتنفرد بالافتتاح بهذه الحروف:

أ ـ الحرفان ال: أعتقد أنهما يشيران ـ أيضاً ـ إلى لفظ الجلالة الله، ويدلان على توحيد

الألوهية، ومعلوم أن معظم آيات السورة تدعو إلى ذلك، وقد تكرر بشكلٍ ملفتٍ دعوةُ الرسل أقوامهم بقولهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

ب ـ الحرف م: أعتقد أنها تعود لموسى عليه السلام، حيثُ تحدثت السورة مطولاً عنه وعن قومه.

ج ـ الحرف ص: إذا ما بحثت عن الكلمات التي ورد فيها حرف الصاد تبين لك أنها وردت في كل موضوع من موضوعات السورة على رأس أهم كلمة من كلماتها، أو في قلبها وإليك أمثلة على ذلك:

د ـ جاءت الصاد في أول موضع في الآية الثانية من السورة في لفظ «صدرك» في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]، وبتأمل لفظ ﴿صَدۡرِكَ﴾ يظهر لنا جمال وإعجاز التعبير القرآني وروعته:

فنلاحظ أن لفظ ﴿صَدۡرِكَ﴾ يراد منه القلب الذي هو في الصدر، ويجيء هنا من باب إطلاق اسم الكل على البعض، ونلاحظ أن لفظ ﴿صَدۡرِكَ﴾ يأتي في الآية من ناحية المعنى بمثابة القلب من الجسد، فهو يمثل حجر الأساس في الآية؛ حيث تستند بمجملها عليه.

ونلاحظ أن لفظ «**صدرك**» يقع في قلب الآية، فعدد كلمات الآية «١٣» كلمة و«صدرك» تأتي رقم «٧»؛ أي منتصف الآية!

هـ ـ في الموضع الثاني جاءت «الصاد» في لفظ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

ونلاحظ أن الآية استهلت بهذه الكلمة لتهيء القارئ للاستماع لما سيأتي في هذه السورة من قصص..، ومن اللطائف أن عدد أحرف كلمة فلنقصنّ يطابق عدد كلمات الآية.

و ـ الموضع الثالث: جاء الحرف ص هنا في لفظ ﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، جاء في معرض الحديث عن خَلْقِ الإنسان في صورته المميزة، ثم أَمْرِ الله الملائكة بالسجود لآدم، واستكبارِ إبليس، ورفضِه الامتثال لأمر الله.

ولفظ «صورناكم» في هذه الآية هو محور القصة، فقد ميَّز الله الإنسان بأن جعل صورته أجمل صورة وأفضلها ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وعزا إبليس رفضه السجود لآدم لتقديره أنه خير منه، وأن الصورة التي خُلق عليها هي أفضل من تلك التي خُلق عليها آدم؛ فقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، ولأجل هذا التكريم انتقم إبليس من آدمَ وذريته، ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

ز ـ الموضع الرابع: جاءت الصاد في لفظ ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

فنلاحظ أن كلمة ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ جاءت آخر كلمة في الآية في إشارة إلى أن طريق التكبر يوصل إلى الصَّغار، وهو خلاف ما يبتغيه المتكبر، ونقيض ما يسعى إليه ويرتجيه.

وسيطول بنا الأمر لو استعرضتُ سائر الكلمات التي وردت في السورة، فأكتفي بهذا القدر مؤكداً أننا سنجد عند تأمل كلِّ كلمةٍ من هذه الكلمات أسراراً وعجائبَ، وميزاتٍ خاصةً، إضافة إلى دورها المحوري في كلِّ موضوع من موضوعات السورة.

المجموعة الثالثة:

وتشمل السُّور الخمس: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، والحجر، ونلاحظ أن هذه السور تتحدث بشكلٍ أساسيٍّ عن الرسل والرسالات.. حتى إن كلَّ سورة منها قد سُميت باسم الرسول الذي تركز الحديث عنه فيها؛ باستثناء «الحجر».

مع الإشارة إلى أن الحديث عن أصحاب الحجر قد ارتبط بتكذيبهم الرسل ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠]، فيما تتحدث السورة بمجملها عن الرسل والرسالات.

ونجد أن جميع هذه السور قد افتتحت بعد ﴿الٓر﴾ بالحديث مباشرة عن آيات الله ورسالته، ثم الرسول أو الرسل.. وإليك بيانَ ذلك:

١ـ سورة يونس: افتتحت بقوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [١ -٢].

٢ـ سورة هود: افتتحت بقوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [١ -٢].

٣ـ سورة يوسف: افتتحت بقوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [١ -٣].

٤ـ سورة إبراهيم: افتتحت بقوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [١ -٢].

٥ـ سورة الحجر: افتتحت بقوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ * وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[١ -٦].

ومن اللافت أن ﴿الٓر﴾: هي نصف كلمة الرسل، وهنا توافقٌ آخرُ يخصُّ سورة يوسف، وهو أن الر نصف كلمة الرؤيا التي هي محور القصة والسورة.

ومع هذا؛ فإنني أميل إلى تجزئة الر، والقول أن ال تعود كما أسلفت في سُوَرٍ

سابقةٍ إلى لفظ الجلالة، وتشير إلى توحيد الألوهية، والدعوة إلى التوحيد واضحة بارزة في جميع هذه السور.

أما الحرف ر: فهي تشير إلى الرسل والرسالات، مع خصوصيةٍ لسورة يوسف بإشارة الحرف ر إلى الرُّؤَى أيضاً:

وقلت: إنه ليس شرطاً أن يعود الحرف، أو يدل على كلمة واحدة في السورة، فقد يدل على أكثر من كلمة، وأكثر من موضوع، والله أعلم.

المجموعة الرابعة:

سورة الرعد: وتبدأ بالحروف ﴿الٓمٓرٰ﴾.

نجد أن سورة الرعد قد اختلفت حروف الافتتاح فيها عَمَّا سبقها ولحقها من سور افتتحت بالحرف الر، بإضافة حرف الميم. ذلك أن موضوعات سورة الرعد تختلف تماماً عن موضوعات تلك السور، فسورة الرعد تعرض لنا جملة من آيات الله في الكون، والتي تدعو إلى الإيمان بالله، وعدم الشرك به، وقد سميت السورة بالرعد، وهو أحد الظواهر الطبيعية في الكون الذي يشهد على قدرة الله وعظمته، ونلاحظ أن الحروف التي افتتحت بها سورة الرعد ترتبط ـ أيضاً ـ بموضوعات السورة، وتتضمنها أبرز الكلمات فيها:

أ ـ الحرفان ال: تعود إلى لفظ الجلالة الله في سياق الحديث عن توحيده وتنزيهه تعالى عن الشرك.

ب ـ الحرف م: وردت الميم في كثير من كلمات السورة البارزة والمميزة والنادرة، ومن أهمها:

الماء: المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالرعد.. ومنها: مدّ، عمد، مسمى، متجاورات،

مَثُلات، مغفرة، معقِّبات، منذر، المتعال، المهاد، الميثاق، ميثاقه، مآب، متاب، ميعاد، معقب، مرسلاً، مكر.

إنَّ إمعان النظر والتفكر والتدبر في هذه الكلمات، من جهة المعنى والمبنى، وموقعها في الآية هو ما يدعو إليه افتتاح السورة بهذه الحروف، فهي ـ كما أسلفنا ـ مفتاحها الذي يدخلك؛ لتعيش مع موضوعات السورة، وتتعرف على أسرارها وعجائبها، إضافة إلى استقاء الحكمة والعبرة والموعظة الحسنة.

ج ـ الحرف ر: مع أنها وردت في كلمات كثيرة؛ إلا أن أهم كلمة وردت فيها، وأعتقد أنها تعود إليها، وتدل عليها، هي الرعد التي سميت السورة به.

المجموعة الخامسة:

سورة مريم: وتبدأ بالحرف ﴿كٓهيعٓصٓ﴾.

أ ـ الحرف ك: من أهمِّ الكلمات التي تحتوي على حرف الكاف، كلمة الله «كن» الممثلة لقدرته تعالى على الخلق، وفعله جلَّ شأنه، ما يشاء في ملكوته، وهي ـ في تقديري ـ أهمُّ موضوع وأول عنصر، جاءت به سورة مريم وقصتها، رغم أن اللفظ في قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥]، جاء متأخراً بعض الشيء، إلا أن الموضوع والفكرة متقدمة.

هذا إضافةً إلى أن أول كلمة في السورة جاءت بعد حروف الافتتاح هي «ذكر»؛ حيث يقع حرف الكاف في عين الفعل، كما أن «ذكر» و«اذكر» ترددت ٦ مرات في السورة: في مطلع قصة زكريا، ومريم، وإبراهيم، وموسى، وإسماعيل، وإدريس عليهم السلام، كما أن حرف الكاف هو ثاني حرف في اسم زكريا عليه السلام.

ب ـ الحرف هـ: ومن أبرز الكلمات التي جاء فيها هذا الحرف: كلمة ﴿هَيِّنٞ﴾، والتي ورد ذكرها مرتين، في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ

خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]. وقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]، ولفظ هَيِّن فيه إشارة عظيمة، ودلالة كبيرة، على قدرة الله سبحانه وتعالى، وكذلك كلمة «هب» و«أهب» التي ارتبطت بقصتي زكريا ومريم عليهما السلام.

﴿وَوَهَبْنَا﴾ التي وردت مرتين في السورة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم: ٥٠]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾[مريم: ٥٣]، إضافة إلى أن حرف الهاء هو أول حرف في اسم هارون الذي ورد ذكره أيضا مرتين في السورة ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ و ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾، ومن الكلمات المميزة البارزة التي ورد فيها حرف الهاء ـ إضافة لما ذكرناه ـ وهن، المهد، هزّي، هدينا، هدّا.

ت ـ الحرف ي: وأرجِّح عودته ليحيى عليه السلام.

ج ـ الحرف ع: وأرجِّح عودته لعيسى عليه السلام، ومن الملاحظ أن الحديث عن يحيى سبق الحديث عن عيسى عليهما السلام.

د ـ الحرف ص: وهو آخر حرف في هذه الحروف، وأحسب أنه يشير إلى أنبياء الله الذين ورد ذكرهم بعد عيسى، وتم وصفهم في السورة بـ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، و﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾، وهم: إبراهيم وإسماعيل وإدريس عليهم السلام.

المجموعة السادسة:

وتشمل سور الشعراء، النمل، والقصص.

الشعراء والقصص تبدآن بالحروف ﴿طسٓمٓ﴾، فيما تبدأ النمل بالحرفين ﴿طسٓ﴾، وميزة هذه المجموعة أنها تتشابه في حروف الافتتاح، مع اختلاف في الموضوعات، ومن اللافت هنا: أنّ سورة النمل افتتحت بحرفي ﴿طسٓ﴾ دون الميم، وأعتقد أن إثبات الميم في الشعراء والقصص، وإسقاطه في النمل، يعود إلى أنّ حرف

الميم: يشير إلى موسى عليه السلام، وبما أن ذكر موسى عليه السلام في النمل لم يَحُزْ على تلك المساحة التي حاز عليها في الشعراء والقصص لم يستدعِ الأمر إثبات الميم.. والله أعلم.

١ـ ولنبدأ بسورة الشعراء:

أ ـ عندما تتبعت الحرف «ط» في كلمات السورة وجدت أن أبرز الكلمات التي ورد فيها، والتي يحتمل أن يكون قد اختير ضمن حروف الافتتاح، بل أول حرف فيها لأجلها هي الطاعة، فنلاحظ أن كل رسول من الذين ذكروا في السورة كان يخاطب قومه بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ حيث تكررت هذه الآية ثماني مرات في السورة، وجاءت أيضاً في النهي عن طاعة المسرفين: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١].

وعليه؛ فإني أرجِّح دلالة الحرف ط على طاعة الله، والتي قرنت في السورة بالتقوى.

ب ـ أمّا الحرف س: فأعتقد أنها تعود إلى السحر؛ حيث ورد ذكر السحر، السحرة، المسحرين، ساحر، سحّار كثيراً في السورة، وموضوع السحر يرتبط ببني إسرائيل بشكل عام، وبقصة موسى عليه السلام مع فرعون بشكلٍ خاص.

ج ـ وأمّا الحرف م: فتعود كما أسلفنا إلى موسى عليه السلام، مع الإشارة إلى أنّ هذه الحروف تقع ـ أيضاً ـ في كلمات هامة ومميزة ينبغي أن يدقق فيها النظر، ويمعن فيها البصر.

٢ـ سورة النمل:

أ ـ الحرف ط: أبرز الكلمات التي ورد فيها الحرف ط في سورة النمل هي: الطير،

فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، و﴿جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾، ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾، و﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا﴾ ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾.

ب ـ الحرف س: أرجح عودته لسليمان عليه السلام، إذْ إنّ ذكره في السورة هو الأبرز.

٣ـ سورة القصص:

أ ـ الحرف ط: نلاحظ أنّ هذا الحرف لم يرد في السورة بشكل واسع ولافت، كما هو متوقع، وأقول: إنه ليس شرطاً أن تكون العبرة بكثرة ورود الحرف، وإنّما في أهمية الكلمة التي ورد فيها، وأهمية الموضوع الذي وردت فيه الكلمة، فهناك سور سميت بأسماء لم ترد سوى مرة أو مرتين في السورة، لكنْ لأهميتها سُمِّيت بها.. مثل سُوَرِ والبقرة، والنحل، والإسراء، والنمل، والعنكبوت، والشعراء.. ومن أهمِّ الكلمات التي وجدتها تبدأ بالحرف ط، ويمكن أن يكون الحرف عائداً إليها هي: الطور، ومعلوم أن سورة القصص تحدثت بشكل مستفيض عن قصة موسى عليه السلام، وللطور أهمية خاصة في قصة موسى، فعند جبل الطور كلَّم الله موسى تكليماً، وعنده كلف موسى بالرسالة، وهو الجبل الذي رفعه الله فوق بني إسرائيل، وأقسم الله به في سورة التين، كل هذا يدفعنا للاعتقاد أنّ الحرف ط عائد إليه.

ب ـ الحرف س: ورد الحرف س في كلمات عديدة في سورة القصص أحياناً في أول الكلمة، وأحياناً في آخرها، ومن أبرز تلك الكلمات وأهمَّها: السحر، وأشرنا إلى ارتباطه الوثيق ببني إسرائيل، وبقصة موسى عليه السلام، وكذلك سرمداً؛ حيث ترد هنا للمرة الأولى في القرآن الكريم، وأيضاً: سواء السبيل، سقى، سقيت، سلطاناً، خسف، حسنة، سيئة، فساد، ونحو ذلك كثير.

ج ـ الحرف م: سبق وأشرتُ أنها تعود إلى موسى عليه السلام؛ حيثُ ورد اسمه في السورة ١٧ مرةً، وتحدثت السورة في معظم آياتها عنه.

المجموعة السابعة:

وتشمل سور: العنكبوت، الروم، لقمان، والسجدة.

وهي تبدأ بالحروف الم، وما يميز هذه المجموعة من السور إضافة لحروف الافتتاح، هو وحدة الموضوعات، فهي جميعاً تدعو إلى الإيمان والتوحيد، ويختلف الأسلوب والعرض من سورةٍ لأخرى، لكنَّ الغاية واحدة، من هنا فإننا نرجح دلالة الحرفين ال إلى لفظ الجلالة وتوحيد الألوهية، كما ذكرنا سابقاً.

ودلالة الحرف م إلى الإيمان، وسنعرض أمثلةً تؤكد ذلك في كل سورة من هذه السور.

١ ـ سورة العنكبوت:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [٤٢].
- ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [٤٤].
- ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [٦١].
- ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [٦٢].
- ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [٦٣].

ومن الآيات التي تحدثت عن الإيمان:

- ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [٢].

- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [٧].

- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [٩].

- ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [١١].

- ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [٤٤].

٢ـ سورة الروم:

- ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [١١].

- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴾ [٢٠].

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [٢٧].

- **ومن الآيات التي تتحدث عن الإيمان في سورة الروم:**

- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ [١٥].

- ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [٣١].

٣ـ سورة لقمان:

- ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [٢٠].

- ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[٢٦].

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [٣٠].

ومن الآيات التي تتحدث عن الإيمان:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [٨].

• ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [٢٢].

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [٣٣].

٤ـ سورة السجدة:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [٤].

• ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [٥].

• ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [٦].

ومن آيات الإيمان:

• ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ * أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [١٨ - ١٩].

المجموعة الثامنة:

سورة «يس».

ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «... **ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله**

والدار الآخرة إلا غفر له، واقرءوها على موتاكم»[١].

إذا ما تتبعنا الحرفين ي و س في سورة «يس» وجدنا أنهما قد وردا في المعظم في قلب الكلمات، ونلاحظ أن نصف آيات السورة تقريباً قد انتهت بحرفي ي، ون، أو ي وم؛ مثل: حكيم، رحيم، مبين، المرسلين، الرحيم.

أمّا الحرف س: فجاءت وسط الكلمات في معظم الحالات، ومن أمثلة ذلك؛ مرسلون، مسرفون، حسرة، يَسْبَحون، طمسنا، لمسخناهم..، ومن أهم الكلمات وأكثرها ارتباطاً بموضوع السورة: سبحان ومرسلون؛ فسبحان متعلقة بآيات الله في الكون التي تتحدث عنها السورة مطولاً، والمرسلون: متعلقة بالرسل الموضوع الأبرز في السورة.

المجموعة التاسعة:

وتضم السور التي تبدأ بحرف واحد وهي: ص، ق، والقلم.

١ـ سورة «ص»:

أقسم الله في بداية السورة بقوله: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، فيما جاء القسم في سورة ق بقوله: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾.

ونلاحظ أن سورة ص تقصُّ علينا ذكراً من الأولين، كداوود وسليمان، وأيوب عليهم السلام.

فيما نجد في سورة ق تمجيداً للقرآن الكريم، ودعوة إلى الإيمان، واتِّباع الحق.

---

(١) ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند **٣٣/ ٤١٧**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد وآخرون، ط١ **١٤٢١**هـ/ **٢٠٠١**م، مؤسسة الرسالة، وقال محققه إسناده ضعيف.

وارتباط ص بالقرآن ذي الذكر يجعلنا نرجِّح أن حرف ص في السورة يعود إلى أهم الكلمات التي احتوت عليه، والمقترنة بتلك القصص الواردة في السورة وأمثلة ذلك:

• كلمة «اصبر»، حيث افتتحت بها قصة داود عليه السلام: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [١٧].

• كلمة «الخصم»: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ [٢١]، ومن اللطائف أن حرف الصاد في «الخصم» يتوسط الكلمة، وكأن في ذلك إشارةً إلى أن على الحَكَمِ أن يقف في مسافة وسطٍ بين الخصمين المختلفين، إذْ إن الآياتِ تتحدث عن التحكيم في مخاصمة بين اثنين.

• كلمة «الصافنات»: جاءت في بداية قصة سليمان: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ [٣١].

• إضافة لكلمات: أصاب، غوّاص، الأصفاد.

• وكلمة «نُصْبٍ» في قصة أيوب: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [٤١].

• وكلمة «صابراً»: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗا﴾ [٤٤].

• وكلمات: الأبصار، أخلصناهم، بخالصة، والمصطفين في الحديث عن إبراهيم وإسحق ويعقوب.

• «وتخاصُمُ» و«يختصمون» في الحديث عن مشاهد الحشر، إضافة إلى ذلك فإن هذه السورة قد احتوت على كلمات نادرة لم ترد في غيرها من السور، مثل: مناص، فصل الخطاب، الصافنات، المصطفين.

٢ـ سورة ق:

إن الحرف ق اقترن بقسم الله بالقرآن المجيد، وكما أن سورة ق بدأت بالقسم بالقرآن، فإنها اختتمت كذلك بذكر القرآن ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [٤٥]، وإضافة إلى كون حرف القاف أولَ حرفٍ في كلمة «القرآن»، فإنه جاء في كلمات كثيرة في السورة، أبرزها كلمة «قال» التي تكررت كثيراً، وكذلك كلمات: قرينه، قعيد، قلب، قدمت، ألقيا، ألقى، فنقَّبوا.. كما نلاحظ اعتماد «قد» التحقيق مع «لام» التأكيد أحياناً في مقابل الاستخدام البارز لـ إنّ، أنَّ، إنْ في سورة القلم، وكل ما سبق يؤكد أهمية حرف ق ومركزيته في السورة.

٣ـ سورة القلم:

إن ارتباط الحرف «ن» بالقسم بالقلم وما يسطرون، واختتام آيات السورة بالحرف «ن» يجعلنا نفترض أن أهمية الحرف «ن» في هذه السورة تتركز بشكل كبير في الجانب اللغوي البلاغي.

فكأنما يقال للقارئ: انظر إلى دقة بناء هذه الكلمات والآيات، وجمال صياغتها، مع احتفاظها بالمعاني العظيمة، والحِكَمِ الجليلة، ويظهر لنا الجانب الجمالي والبلاغي في السورة، ودور الحرف «ن» فيه من خلال:

أ ـ انتهاء ٤٣ آية من السورة من أصل ٥٢ بحرف «ن»، في حين انتهت ٩ آيات بحرف الميم.

ب ـ استخدام حرف التوكيد إنّ عشر مرات في السورة التي كثر فيها ـ أيضاً ـ استخدام صيغ المبالغة، ومع ذلك؛ فإن القارئ للسورة لا يشعر بأيِّ تكلُّف، أو مبالغة، أو ثقل؛ بل إن الكلماتِ والآياتِ تنساب بسلاسة وعذوبة فائقة ترتاح لها النفس، وتطرب منها الأذن.

المجموعة العاشرة: الحواميم.

وتشمل السور السبع: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية والأحقاف، وجميعها تبدأ بالحرفين «حم»، وتمتاز هذه السور بأنها تكاد تكون سورة واحدة، يتغير فيها أسلوب الخطاب وشكله، وتختلف الأمثال المضروبة فيها وتتنوع، وقصص السابقين المذكورة، ويبقى الموضوع واحداً، والغاية واحدة.

ويظهر بشكل واضح في جميع هذه السور اعتماد أسلوب العقل والمنطق، وسَوْقُ الحكمة، والحجة، والموعظة الحسنة في محاججة الكافرين، وتفنيد ادّعاءاتهم.

وبين الترغيب والترهيب يحكم الله، ولا معقِّبَ لحكمه، وتسود الحكمة وتسيطر، وتحتل موقع الصدارة في جميع هذه السور التي يبرز التركيز فيها على اسم الله «الحكيم»، وهو «الحَكَم» الفصل الذي يحكم بين العباد.

من هنا؛ فإني أرجعت حرفي حم التي افتتحت بهما هذه المجموعة من السور إلى اسم الله «الحكيم»، وإلى حُكْمِهِ، بمعنى أنها تجمع بين الحُكْم والحكمة، وهما أبرز ما تركِّز عليه هذه السور. ومن الشواهد على ذلك:

١ـ في سورة غافر، قوله تعالى:

• ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [٨].

• ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [١٢].

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [٤٨].

٢ـ سورة الشورى: وتبدأ بالحروف «حم» «عسق»:

أ ـ الحرفان حم وتشير إليهما:

• ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [٣].

• ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ [٥١].

ب ـ أما الحروف «عسق»، فأعتقد أن كل حرف منها يعود لاسم أو أكثر من أسماء الله التي وردت في السورة:

الحرف ع: العزيز، العلي، العظيم، عليم.

الحرف س: السميع.

الحرف ق: القوي، القدير

٣ـ سورة الزخرف:

• ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [٤].

• ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَى بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [٦٣].

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [٨٤].

٤ـ سورة الدخان:

• ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [٤].

٥ـ سورة الجاثية:

• ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [٢].

• ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [٣٧].

٦ـ سورة الأحقاف:

• ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [٢].

وختاماً؛ أوضح أنّ هذه مجرد تحليلات وتصورات تستند لشيء من المنطق والعقل؛ لكني لا أجزم بصحتها، وتبقى في دائرة الاجتهاد والتفكر والتدبر ليس أكثر، والله أعلم بمرادها.

تمَّ بفضل الله وعونه في:

٤ صفر ١٤٣٦هـ

الموافق:

٢٦- ١١- ٢٠١٤م

سجن بئر السبع الصحراوي

وآخر دعوانا أن الحمد لله

رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١ـ ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد وآخرون، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة.

٢ـ ابن القيم، محمد، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٣ـ ابن القيم، محمد، الفوائد المشوق، مكتبة المتنبي ـ القاهرة، وقيل بل مؤلفه هو أبو عبد الله جمال الدين محمد بن سليمان البلخي المقدسي الحنفي الشهير بابن النقيب (ت: ٦٩٨هـ).

٤ـ ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، مكتبة الصفا ـ القاهرة.

٥ـ ابن هشام، عبد الملك، سيرة ابن هشام، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية.

٦ـ أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، طبعة دار الفكر.

٧ـ البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محمود زهير الناصر، ط١، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.

٨ـ البخاري، محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد،، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م مع تخريجات الشيخ الألباني، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.

٩ـ الجزائري، أبو بكر، عقيدة المؤمن، ص٥٤، طبعة دارالعقيدة ـ القاهرة، نشر مكتبة دار العلوم والحكم.

١٠ـ حوى، سعيد، الأساس في التفسير، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م،دار السلام للطباعة والنشر.

١١ـ الخنساء، تماضر بنت عمرو، ديوان الخنساء، طبعة دار صادر ـ بيروت.

١٢ـ الدكتور إبراهيم أنيس وزملاؤه،المعجم الوسيط، الطبعة الثانية.

١٣ـ الرافعي، مصطفى صادق، وحي القلم، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٤ـ الزجاج، إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، عالم الكتب ـ بيروت.

١٥ـ السامرائي، فاضل، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، شركة العاتك ـ القاهرة.

١٦ـ السجستاني،سليمان بن الأشعث، سنن أبي داوود، تحقيق الأرناؤوط، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، دار الرسالة العالمية.

١٧ـ الشعراوي، محمد، تفسير الشعراوي، إصدار أخبار اليوم ـ قطاع الثقافة.

١٨ـ الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، دار الوفاء ـ المنصورة.

١٩ـ الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار ابن الجوزي ـ القاهرة.

٢٠ـ العسكري، أبي هلال الحسن بن عبدالله، الفروق اللغوية، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢١ـ قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط الخامسةَ عشرةَ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، دار الشروق ـ القاهرة.

٢٢ـ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

٢٣ـ يحيى،عماد عبد،البُنى والدلالات في لغة القصص القرآني، ط١، ٢٠٠٩م، دار دجلة ـ الأردن.

٢٤ـ النابلسي، محمد راتب، موسوعة أسماء الله الحسنى، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، دار المكتبي ـ دمشق.

٢٥ـ www.kaheel7.com/modules.php?name=News&file. 26- 6- 2014

❊ ❊ ❊

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
تقريظ: شهادة علمية في كتاب «تأملات قرآنية»	٧
مقدمة الكاتب	١١
المبحث الأول: وقفات تأملية مع قصتي مريم وزكريا	١٦
المبحث الثاني: وقفات تأملية مع قصة موسى والخضر عليهما السلام	٤٣
المبحث الثالث: وقفة مع مؤمن آل فرعون	٥٦
المبحث الرابع: وقفة مع آية الآعراف	٦٤
المبحث الخامس: وقفات تأملية: مع مواضعَ من سورة الأنبياء	٦٩
المبحث السادس: وقفات تأملية: مع آيات الزروع والأشجار في مواضعَ مختلفةٍ من القرآن الكريم	٧٩
المبحث السابع: وقفات مع قبضة من آيات الجهاد	٩١
المبحث الثامن: وقفات متفرقة	٩٦
المبحث التاسع: وقفة تأملية مع حروف مطالع السور	١٤٤
فهرس المصادر والمراجع	١٦٥
الفهرس	١٦٩
كتب وروايات صدرت للمؤلف	١٧١

كتب وروايات صدرت للمؤلف

١ـ المقاومة بين النظرية والتطبيق.

٢ـ حكاية صابر.

٣ـ وفاء وغدر.

٤ـ القرآن الكريم ونظرية المؤامرة.

* * *